

## عَادَاتُ الْعَرَبِ الْقَوْلِيَّةُ

فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

أ. د. عَبْدِ الْفَتَّاحِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ خَضِرٍ<sup>(\*)</sup>

### مُخَصِّصُ الْبَحْثِ

يمثل البحث نقطة انطلاق نحو فهمٍ أوسعٍ لمعاني القرآن الكريم من خلال وقوف المشتغل بالدراسات القرآنية على واقع العرب الثقافي وقت نزول القرآن الكريم، وهو ما يمكن الاصطلاح عليه بملايسات النزول، وهي أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.

ويؤكد البحث أن أيَّ خطاب لا يمكن أن نفهمه ما لم نستحضر سياقه اللغوي وسياقه غير اللغوي، ومن ثم فليس كلُّ أخذٍ بظاهر النص يفضي إلى مراد الله تعالى، إذ إن عملية بيان المعنى وعملية استنباطه عملية معقدة، وليس البناء اللغوي الظاهري إلا مدخلاً لهذا، ومن هنا كان لزماً على من أراد التعرُّض للتفسير أن يكون فاقهاً لملايسات النص وجوه الذي قيل فيه.

ويفصح البحث عن أهميته للمفسر ليقول صواباً، وللمترجم لمادة التفسير ليعيش روح النص، لا قلبه ومفرداته المتباعدة فحسب، حيث إنه إن تغافل عن روح النص، وعمد إلى قوالب الألفاظ ضلَّ وأضلَّ؛ لأنه يجعل ما ليس مراداً لله مراداً له بترجمته للقرآن ترجمة حرفية، وهذا ما لا يليق؛ لأنه قول على الله بغير علم، وإذهابٌ لإعجاز القرآن، وترجمة لكلمات القرآن لا لمعانيه، وهو ممنوع أصلاً.

ولما كانت عادات العرب القولية وسننها اللغوية الماثورة في تراث العربية والتفسير أكثر من أن يحتويها بحث موجز، اكتفيت هنا بإيراد ما يزيد على ثمانين أنموذجاً - في ضوء آيات العقيدة والعبادات والمعاملات مما يفتح الأبواب أمام الباحثين في هذا اللون الإعجازي للقرآن الكريم.

(\*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم بجامعة الأزهر، عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنه كَمِنَ النِّعَمِ العَظِيمَةِ، والآلاءِ السَّابِغَةِ الجَلِيلَةِ، الحَيَاةِ فِي رَحَابِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ فَضَّلَ اللهُ وَرَحِمْتَهُ، وَرِضَاهُ وَمُنْتَهَى، نَسَأَلُ اللهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ أَنْ يَدِيمَ عَلَيْنَا هَذَا الْفَضْلَ الْمُبِينِ.

موضوع هذا البحث: «عادات العرب القولية في ضوء القرآن الكريم» موضوع له أهميته وشأنه في الدراسات القرآنية المتعلقة بلغة العرب وأهلها الأوائل، حيث إفادة المفسر والمترجم لتفسير القرآن الكريم، وعمامة المشتغلين بالدراسات القرآنية. إفادة المفسر تكمن في تحريه الدقة بتجلية المعاني التي تنتظمها الآية الكريمة، مع مراعاة اللفظ ومعناه من خلال الوقوف على حال أصحاب اللسان العربي الأصيل الذي نزل القرآن الكريم به.

وأما إفادة المترجم فتكمن في وقوفه على حال من نزل القرآن بلسانهم، فلا ينزلق إلى ترجمة حرفية تفقد اللفظ معناه، فيصِلُّ، ويتعدى ضلاله إلى غيره ويأثم، ويوقع غيره في حرج، إذ فيها إخراج القرآن العظيم عن ثوبه الإعجازي بتطبيق قواعد ترجمة كلام الناس على ترجمة تفسير كلام رب الناس ملك الناس إله الناس.

واهتم الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - في النوع الأربعين من أنواع علوم القرآن الكريم من كتاب «الإتقان» بضرورة معرفة المفسر لمعاني أدواته التي يحتاج إليها، والتي قصد بها: «الحروف» وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، إذ ابتدأ بالهمزة، وانتهى بالياء<sup>(١)</sup>، وفي النوع الثاني والأربعين الذي عنوانه: «قواعد مهمة

(١) الإتقان: ٣/ ١٠٠٤ وما بعدها، ٤/ ١١٥٣ - ١٢١٨.

يحتاج المفسر إلى معرفتها» ذَكَرَ السيوطي قاعدة في الضمائر، وقاعدة في التذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، وفي الأفراد والجمع، ومقابلة الجمع بالجمع، وقاعدة في ألفاظ يُظنُّ بها الترادف وليست منه، وقاعدة في السؤال والجواب، وقاعدة في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل، وقاعدة في المصدر، وقاعدة في العطف، فذكر شيئاً يسيراً ممَّا نحن بصدده<sup>(١)</sup>.

ومما ذكره الحافظ في النوع السادس والثلاثين (في معرفة غريبه) - أي: القرآن - مسائل نافع بن الأزرق التي طرحها على حَبْرِ الأُمَّة ابن عباس - رضي الله عنهما - وهي أَوْعَبُ ما ورد في نطاق تبين الحرف الغريب من القرآن الكريم بالشعر العربي، فمن طريق عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب)، وقد ساق الحافظ السيوطي أكثر هذه المسائل<sup>(٢)</sup>، وكون ما أجاب به ابن عباس يمثل جانباً من عادات العرب القولية أمر مظنون لا أستطيع القطع به، بل أرجى ما يستفاد منها أنها تفسير وبيان للغريب - فحسب - لأدلة منها:

- أن مسائل ابن الأزرق جاءت من قبيل بيان الغريب كـ (الأبّ، والكلالة، وفاطر...)، وقد توقف في تفسير هذه الألفاظ أساطين الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين.
- كما أن قول ابن الأزرق الخارجي في ردِّه على كل جواب لابن عباس (وهل تعرف العرب ذلك؟!)، وإجابة ابن عباس عليه بقوله: (نعم، أما سمعت قول...)، ويسوق بيتاً من الشعر، ينبئ عن نظر واضح في مدى معرفة آحاد العرب لما جاء به حَبْرِ الأُمَّة،

(١) الإتيان: ٤/ ١٢٦٦ وما بعدها.

(٢) الإتيان: ٣/ ٨٤٧ وما بعدها. ورجال هذا الأثر ثقات. انظر: الأنساب ١/ ٤٥٧ قاله محقق الإتيان.

فضلاً عن أن يكون من عاداتهم القولية وديَدَنِهِم اللغوي. ومن هنا لم نذكر شيئاً من هذه المسائل لورودها لهدف يغير خَطَّ بَحْثِنَا، ولأنني قيدت كل عادة - من خلال أقوال العلماء - بالنص على كونها كذلك.

وعلى حَدِّ عِلْمِي فَإِن أصحاب التفاسير الذين اتسموا بالاهتمام بالنظرات القولية كالطبري، والزمخشري، والفخر الرازي، وأبي حيان، والقرطبي، والآلوسي، هم الذين صرَّحوا بعادات العرب القولية، ولكن على حسب متطلبات كل آية تحتاج إلى التذكير بعادة قولية لغوية من عادات العرب، تُفَسِّرُ الآية في ظلها، لا على سبيل إفراد الموضوع بمصنّف.

وقد كانت جهودهم المبثوثة في كتب التفسير متعاضدة مع جهود علماء اللغة كسيبويه، وابن جني، وابن فارس، وغيرهم.

وقد أبان أحمدُ بنُ فارسٍ في مقدمة كتابه (الصاحبي) أنه صَنَّفَ كتابه في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، ووضَّح أن اللغة العربية واسعة لا يحيط بها إلا نبي، وهذا كلام حَرِيٌّ أن يكون صحيحاً. ثم قال: «وما بلغنا أن أحداً ممن مضى ادَّعى حِفْظَ اللُّغَةِ كُلِّهَا»، ومن هنا تساءل: «وأين لسائر اللغات من السَّعة ما للغة العرب؟ ثم علَّق قائلاً: هذا ما لا يخفاه به على ذي نُهيَّة»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع - الذي اعتمدتُ في تكوينه على الله تعالى، ثم على تحليلات المفسرين في كتبهم الثرية بفنون العربية، مع شفع ذلك باستقراء ما كتبه أهل اللغة والأدب؛ خدمة لمحل الشاهد - من خلال ندرة المؤلفات المتفردة بعادات العرب القولية في ضوء القرآن الكريم.

(١) الصاحبي: ٤، والعبارة أصلها للإمام الشافعي في الرسالة ٤٢، ونصها: (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي).

وتكميلاً لما كنت بدأت من قبل، من تقديم بحث سبق في (عادات العرب في ضوء القرآن الكريم) تمحّض في العادات العملية، وبانضمام العادات القولية للعادات العملية يتم النفع ويتكامل الموضوع ليبنى ركناً ركيناً في الدراسات القرآنية المعاصرة، يعين المفسّر، كما يعين المترجم للتفسير إلى أي لغة أخرى كما وضحت آنفاً.

وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة وأربعة مباحث، وخاتمة:

أما المقدمة فبينت فيها أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره.

وأما المباحث الأربعة فهي على النحو التالي:

**المبحث الأول:** العادة من حيث: تعريفها، وأقسامها، وحاجة المفسرين إلى

معرفتها، والألفاظ ذات الصلة.

**المبحث الثاني:** عادات العرب القولية في ضوء آيات العقيدة.

**المبحث الثالث:** عادات العرب القولية في ضوء آيات العبادات.

**المبحث الرابع:** عادات العرب القولية في ضوء آيات المعاملات.

**الخاتمة:** جمعت فيها أهم نتائج البحث وشفعت ذلك بالتوصيات<sup>(١)</sup>.

هذا... ومجمل بحثي يؤكد ضرورة معرفة المشتغلين بالدراسات القرآنية لواقع مَنْ نزل فيهم القرآن، ودراسة ظروفهم الاجتماعية والفكرية والدينية، وذلك لكون القرآن الكريم نزل موافقاً لعين ما نطق به أهل العربية العرباء، ومؤيداً لمنطقهم الأصيل، ومراعياً لأعرافهم القولية العتيقة، وأن من عَفَلَ عن هذا، ثم نَعَرَّضَ لبيان القرآن فقد قال على الله بغير علم.

(١) ستي في هذا البحث أن ما نقلته بالنص وضعته بين تنصيص هكذا ( ) دونما سواه. كما أن ضابط التقسيم في المباحث الثلاثة الأخيرة باعتبارين: أولهما: الاستشهاد بالآية القرآنية التي أوردتها مثلاً يبرهن على أصالة ما قالته العرب دون أي اعتبار آخر. ثانيهما: كون العقيدة والعبادات والمعاملات أهم أوعية القول ومجالاته، وهذا عين ما يخص هذا البحث.

ولما كانت سنن العرب القولية، وعاداتها اللغوية أكثر من أن يحتويها بحث موجز - كبحتي هذا - إذ إن القرآن الكريم نزل موافقاً لسنن العرب في كلامها، وسنن العرب القولية كثيرة تحتاج إلى جمع وتبويب؛ لتكون موسوعة علمية جامعة، بعد أن أضحّت مبثوثةً في كتب العربية بصفة عامة، ولدى مفسّري القرآن الكريم بصفة خاصة، اكتفيت بنماذج - تمثّلت في المباحث الثلاثة الأخيرة - تفتح الأبواب أمام الباحثين في هذا اللون الإعجازي من ألوان التحدي اللغوي للقرآن الكريم.

والله من وراء القصد

## المبحث الأول

### العادة

تعريفها - أقسامها - حاجة المفسرين إلى معرفتها - الألفاظ ذات الصلة

يدور هذا المبحث حول ضابط العادة من خلال تعريفها في اللغة والاصطلاح، وفي علم الاجتماع، مع بيان العلاقة بين هذه التعريفات، مروراً بتلخيصي لتعريف لها عند علماء التفسير من خلال استقراء ما تيسر من كتبهم، كما يدور هذا المبحث حول أقسام العادة، وضرورة معرفة المفسر لها، كما يبين الألفاظ ذات الصلة.

ولنبداً في المأمول بحول الله تعالى، فنقول:

#### - تعريف العادة:

العادة عند اللغويين هي: معاودة الأمر حتى يصير سجيةً لصاحبه وديناً وطبعاً<sup>(١)</sup>.

أما العادة اصطلاحاً: فقد عرّفها الجرجاني تعريفاً ينخرم بكونه غير جامع، فقال: «العادة ما استمر الناس عليه على حكم المعقول - أي: ما يتفق مع المصلحة - وعادوا إليه مرّة بعد أخرى»<sup>(٢)</sup>، وهو بهذا غير جامع، إذ يقصر العادة على الحسن منها فحسب، في حين أنّ من العادة ما هو حسنٌ، ومنها ما هو قبيح.

لذا أستطيع القول بأن العادة هي: مجموع ما اعتاده أهل مجتمع ما من أقوال أو أفعال حسنة كانت أو سيئة.

(١) معجم مقاييس اللغة: ٤/ ١٨٢، والمفردات: ٢/ ٢١٨، ولسان العرب: ١/ ٣١٦، ٣٦٨، والمصباح

المنير: ٣٥٥ (عود).

(٢) التعريفات: ١٨٨.

العادة في علم الاجتماع: تنحصر العادة في عرف علم الاجتماع في: «الإلف والطبيعة»<sup>(١)</sup>.

### - العلاقة بين التعريفات:

من خلال التدقيق في مفهوم العادة لغة واصطلاحاً، ولدى علماء الاجتماع نجد التوافق بين التعريفات كلها، إذ معاودة الأمر حتى يصيرَ سَجِيَّةً لصاحبه وديناً وطبعاً، هو بعينه ما اعتاده أهل مجتمع من المجتمعات من أقوال أو أفعال حسنة كانت أو سيئة، هو الإلف والطبيعة.

### - العادة القولية وورودها في كتب التفسير:

لم أقف على تعريف للعادة القولية من خلال علماء التفسير، ولكنني أستطيع تعريفها في ضوء معطيات هذا البحث، ومن خلال استقراء ما استطعتُ استقراءه من كتب التفسير، فأقول:

العادة القولية هي: سنن العرب السائدة في كلامهم وقت نزول القرآن الكريم.

قلت: هذا لأن القرآن مَعْنِيٌّ بِمَنْ نَزَلَ فِيهِمْ، وَلَا بَسَهُمْ، وَنَطَقَ بِلُغَتِهِمْ، وَخَاطَبَهُمْ، وَأَجَابَ عَنْ أَسْئَلَتِهِمْ، وَنَاقَشَهُمْ، وَتَحَدَّاهُمْ وَأَلْزَمَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ \* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

### - أقسام العادة القولية:

تنقسم العادة القولية إلى أقسام متعددة بتعدد أبواب الكلام العربي وسننه، فمنها ما يتعلّق بالمشنى، ومنها ما يتعلّق بالجمع، ومنها ما يتعلّق بالأفعال، ومنها

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣٧.



ما يتعلّق بالأسماء، ومنها ما يتعلّق بالأوصاف، ومنها ما يتعلّق بالتعريف، ومنها ما يتعلّق بالتنكير، ومنها ما يتعلّق بالإشارة، ومنها ما يتعلّق بالمدح، ومنها ما يتعلّق بالذم، ومنها ما يتعلّق بالمنادى، ومنها ما يتعلّق بالتعجب، ومنها ما يتعلّق بالمبالغة، ومنها ما يتعلّق بالتمييز... وهلمّ جراً.

### - ضرورة معرفة عادات العرب القولية للمشتغل بالدراسات القرآنية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: «قَوْمٌ اعْتَقَدُوا مَعَانِي ثُمَّ أَرَادُوا حَمَلَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَيْهَا.

وَالثَّانِيَةُ: قَوْمٌ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِمُجَرَّدِ مَا يُسَوِّغُ أَنْ يُرِيدَهُ بِكَلَامِهِ مَنْ كَانَ مِنَ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ بِالْقُرْآنِ وَالْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وَالْمُخَاطَبِ بِهِ.

ف «الأولون» رَاعُوا الْمَعْنَى الَّذِي رَأَوْهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَا تَسْتَحِقُّهُ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ مِنَ الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ.

و«الآخرون» رَاعُوا مُجَرَّدَ اللَّفْظِ وَمَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْعَرَبِيُّ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَا يَصْلُحُ لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَلِسِيَاقِ الْكَلَامِ. ثُمَّ هُوَ لِأَكْثَرِ مَا يَغْلُطُونَ فِي احْتِمَالِ اللَّفْظِ لِذَلِكَ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ كَمَا يَغْلُطُ فِي ذَلِكَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلِينَ كَثِيرًا مَا يَغْلُطُونَ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَى الَّذِي فَسَّرُوا بِهِ الْقُرْآنَ كَمَا يَغْلُطُ فِي ذَلِكَ الْآخَرُونَ، وَإِنْ كَانَ نَظَرُ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْمَعْنَى أَسْبَقَ، وَنَظَرُ الْآخَرِينَ إِلَى اللَّفْظِ أَسْبَقَ.

وَالأَوَّلُونَ «صِنْفَانِ»: تَارَةً يَسْتَلْبُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأُرِيدَ بِهِ. وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ عَلَى مَا لَمْ يَدَلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يَرِدْ بِهِ، وَفِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدْ يَكُونُ مَا قَصَدُوا أَهْلِيهِ أَوْ إِثْبَاتَهُ مِنَ الْمَعْنَى بَاطِلًا فَيَكُونُ خَطُؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ، وَقَدْ يَكُونُ حَقًّا فَيَكُونُ خَطُؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ»<sup>(١)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى: ١٩٦/٣.

وفي ظلال هذا التععيد من شيخ الإسلام نقول: إنه يجب على المشتغلين بالدراسات القرآنية أن يحرروا دلالة الخطاب، بمعنى استخراج المعنى من الخطاب باستحضار عاملين أساسيين هما:

السياق اللغوي أي: السياق الداخلي المتمثل فيما قبل الآية - موضوع التفسير - وما بعدها باعتبار القرآن الكريم نسقاً متكاملًا لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الشمولي، ومن ثم نفهم فهماً جيداً لماذا اشترط أهل السنة في أصولهم التفسيرية تفسير القرآن بالقرآن، ودلالة السياق، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والعلاقات الدلالية القائمة بين ألفاظ القرآن الكريم: العام والخاص، المطلق والمقيد، علاقة الجزء بالكل، علاقة التضمن وغيرها من العلاقات الدلالية التي في غيابها لا يمكننا فهم الخطاب القرآني.

كما أن عليه: فَهَمَّ السياق غير اللغوي، أي: السياق الخارجي وهو بالنسبة للخطاب القرآني ينقسم إلى قسمين:

أسباب النزول: وهي الظروف والملابسات المواكبة لنزول سورة أو آية، أي: إنها سبب غير مباشر. ومعلوم أنه ليس كل القرآن الكريم له سبب مباشر، كما أنه لا يمكن أن نتصور أن بعضاً من القرآن الكريم ليس له سياقٌ غير لغوي، فالقرآن الكريم كان ينزل في بيئة عربية، ويخاطب أقواماً من العرب العرباء، ومن ثم فإنه حتماً ولزماً له سياق غير لغوي يتمثل في الواقع الثقافي المواكب لنزول القرآن الكريم: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية التي واكبت نزول القرآن الكريم، وهي ما يمكن الاصطلاح عليه بملابسات النزول، وهي أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.

لذا فإنَّ أيَّ خطاب لا يمكن أن نفهمه ما لم نستحضر سياقه اللغوي وسياقه غير اللغوي، ومن ثم فليس كلُّ أخذٍ بظاهر النص يُعدُّ مُفضيًّا إلى مراد الله تعالى، إذ إن عملية بيان المعنى وعملية استنباطه عملية معقدة، ولا يشكل البناء اللغوي الظاهري إلا مدخلاً لهذه العملية، ومن ثم وجب الاحتراز من ذلك بوصفه مدخلاً لكثير من الفرق الضالة قديماً وحديثاً لتمرير مخططاتهم، إذ الأخذ بالظاهر له شروط منها:

- (١) العام ينظر إليه في إطار الخاص.
- (٢) المطلق ينظر إليه في إطار المقيد.
- (٣) المتشابه ينظر إليه في إطار المحكم.
- (٤) المنسوخ ينظر إليه في إطار الناسخ.
- (٥) دلالة السياق اللغوي: أي ما قبل النص وما بعده.
- (٦) العرف اللغوي، أي: مراعاة سنن العرب في كلامهم.
- (٧) العرف القرآني: طرائق القرآن التعبيرية وأسلوبه في البيان والبلاغ<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نستطيع الجزم بأنه لا نصيب في فهم القرآن لمن لم يتدبَّر ملابسات النص ووجوهه التي قيل فيها، ولعل هذا هو سبب اشتراط العلماء<sup>(٢)</sup> على من أراد التعرُّض لتفسير كلام الله تعالى أن يكون فاقهاً بملابسات النص وجوه الذي قيل فيه، وقصة نزول كل آية لها سبب، قال الواحدي: «يمنتع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ومن وكَّج هذا المولِّج بجهل فموعده النار»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر شبكة التفسير والدراسات القرآنية، ومقال د. الضاوي.

(٢) كالواحدي، وابن تيمية، وابن دقيق العيد، ومن وافقهم كالسيوطي وغيره من العلماء.

(٣) أسباب النزول: ٤، وانظر: لباب النقول: ١٣، والإتقان: ١/ ٩٢.

من الأمثلة التطبيقية المبرهنة على ضرورة معرفة عادات العرب القولية شرطاً من شروط المشتغل بالدراسات القرآنية تفسيراً أو ترجمة:

• فساد رأي من فسر الصباح في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصفات: 177] بمجرد الزمن المعروف في أول النهار فحسب؛ لأن في ذلك عدم مراعاة سنن العرب في تعبيراتهم ومراداتهم منها.

• وفساد رأي مَنْ حَمَلَ بِكَاءِ السَّمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: 29] على معناه الظاهر دون مراعاة سنة العرب في استعمال هذا التركيب.

• وفساد رأي مَنْ حَمَلَ مَعْنَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: 37] على معناه الظاهر المتبادر بدهاءة منه، دون الرجوع لسنة العرب في هذه العبارة، وما الذي يعنونه عند إطلاقها؟

• ومرجوحية رأي من فسّر الفحشاء في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268] بمعناها المتبادر الشائع في غير هذا الموضع في القرآن الكريم كله.

• كما أن من لم يقف على عادات العرب القولية من المفسرين أو المترجمين للتفسير، يحار في كيفية نسبة صدور الفعل مما لا يمكن صدوره منه في مثل قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: 3]، ولن يهتدي إلا بالعود إلى أصحاب اللسان العربي الأول الذي نزل القرآن على سننِهِ.

كما تُظهِرُ أَهْمِيَّةُ هَذَا الْمَوْضُوعِ سُنَنَ الْعَرَبِ فِي التَّكْرِيرِ وَالْإِعَادَةِ، وَإِطْلَاقِهِمُ الْوَاحِدَ وَإِرَادَتِهِمُ الْجَمْعَ... وَهَلَمَّ جَرًّا.

قلت: كل ذلك وغيره يُجَسِّدُه جوهر هذا البحث، ويفصح عن أهميته للمفسر ليقول صواباً، وللمترجم لمادة التفسير ليعيش روح النصّ لا قلبه ومفرداته المتباعدة فحسب، إذ إن مَنْ تغافل عن روح النص، وعمد إلى قوالب الألفاظ، ضلَّ وأضلَّ؛ لأنه يجعل ما ليس مراداً لله مراداً له.

ومما يجدر الإشارة إليه أن واحداً ممن ترجم معاني القرآن إلى الفرنسية قال في قوله تعالى: ﴿هَنَ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ما نصه: (هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن)؛ لحمله اللفظ على غير المراد منه لترجمته ترجمة حرفية، وهذا ما لا يليق؛ لأنه قول على الله بغير علم، وإذهاب لإعجاز القرآن وجهل فاضح به، وبالله رب العالمين، وترجمة للقرآن لا لمعانيه وهو ممنوع أصلاً.

#### – الألفاظ ذات الصلة:

من الألفاظ ذات الصلة بالعادة: العُرْفُ، والسُنَّةُ، والطبع، والتقليد، والكل بمعنى العادة على صحيح القول<sup>(١)</sup>.

(١) الموسوعة الفقهية: ٥٤/٣٠. ويقول الجرجاني: «العرف ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول وهو حجة أيضاً، لكنه أسرع إلى الفهم، والعادة هي ما استمر الناس عليه على حكم العقول وعادوا إليه مرة أخرى». التعريفات - الجرجاني: ١/١٩٣. أما التقليد فهو إلف ما عليه الناس ومجاراتهم في عاداتهم. أما السُنَّةُ فالطَّرِيقَةُ، وَالسُّنَّةُ السَّيْرَةُ حَمِيدَةٌ كَانَتْ أَوْ ذَمِيمَةً، وَالْجَمْعُ سُنَنٌ مِثْلُ: عُرْفَةٍ وَعُرْفٍ. المصباح المنير: سنن، ص ٢٩١.

## المبحث الثاني (\*)

### عادات العرب القولية في ضوء آيات العقيدة

في هذا المبحث نورد نماذج لبعض عادات العرب القولية في ضوء آيات عنيت بالمعاملات من ذلك:

#### - تسمية العقوبة باسم الذنب:

من عادات العرب القولية: تسميتهم العقوبة باسم الذنب، وفي ضوء هذه العادة العربية جاء قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

أي: ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، فسَمِيَ العقوبة باسم الذنب، هذا قول جمهور العلماء، والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم، من ذلك قول عمرو بن كلثوم<sup>(٢)</sup>:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنجَهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا  
فَسَمِيَ انتصاره جهلاً، والجهل لا يفتخر به ذو عقل، وإنما قاله ليشاكل الكلام، فيكون أخفَّ على اللسان من المخالفة بينهما، وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء ذكره بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة النبوية المطهرة، قال الله عز وجل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والجزاء لا يكون سيئة،

(\*) تصنيف الآيات وَفُق ما ذهب إليه الباحث في المباحث الثلاثة يحمل وجهة نظره، وثمة وجهات أخرى تصنف الآية تصنيفاً آخر. وعلى كل حال الإضافة تقع بأدنى ملابسة، ومناط البحث يدور حول سنن العرب في أقوالهم.

(٢) انظر: لسان العرب: ٣/ ١٧٥، المزهري في علوم اللغة: ١/ ٣٧٠، خزائن الأدب: ٦/ ٤٣٧.

والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق وجب، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا \* وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وكذلك قوله سبحانه في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدَائِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وفي حقهم أيضاً: ﴿فَبَسَحَرُونْ مِنْهُمْ سِحْرَ اللَّهِ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»<sup>(١)</sup>، قيل: «حتى» بمعنى الواو أي: وتملوا، وقيل: المعنى: وأنتم تملُّون، وقيل: المعنى: لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل<sup>(٢)</sup>.

### - قولهم عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض:

من عادات العرب القولية: قولهم عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، وعلى ذلك يجب حمل معنى نفي البكاء على فرعون وقومه في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لكفرهم، وما كانوا منظرين أي: مؤخرين بالغرق، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمَّت مصيبتُهُ الأشياءَ حتى بكتَهُ السماء والأرض والرياح والبرق، وبكتَهُ الليالي الشتايات، قال يزيد بن مفرغ الحميري<sup>(٣)</sup>:

فَالرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهَا وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ

(١) البخاري، كتاب: الصوم، باب: صوم شعبان، برقم: ١٩٧٠، ٢٩٩/٧، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فَصِيلَةُ الْعَمَلِ الدَّائِمِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ. برقم: ١٨٦٣، ١٨٢/٥.

(٢) القرطبي: ٢٠٧/١. تنبيه: يجب علينا أن نؤمن بما أخبر الله به في كتابه العزيز وبما نطقت به السنة رسله صلوات الله عليهم أجمعين، من غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تأويل، وكذلك كل ما جاء من الصفات نُورُهُ كما جاء من غير مزيد عليه، ونقتدي في ذلك بعلماء السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ونسكت عما سكتوا عنه، ونأول ما تأولوا، وهم القدوة في هذا الباب، وبهم نهتدي.

(٣) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري: ٢٠٨.

وقال جرير<sup>(١)</sup>:

فالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمْرَا  
وَقَالَتْ لَيْلَى الْخَارِجِيَّةُ تَرْتِي أَخَاهَا الْوَلِيدَ<sup>(٢)</sup>:

أَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَحْزَنْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ  
وَذَلِكَ مَبَالِغَةٌ فِي وَجُوبِ الْجَزَعِ وَالْبِكَاءِ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ هَلَكُوا فَلَمْ تَعْظَمِ  
مَصِيبَتَهُمْ، وَلَمْ يَوْجِدْ لَهُمْ فَقْدًا<sup>(٣)</sup>.

### - تَخْصِيصُ الدَّابَّةِ بِذَوَاتِ الْأَرْبَعِ:

من عادات العرب القولية: تخصيصُ الدَّابَّةِ بِذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ  
فَعَمَّمَ هَذَا التَّخْصِيصَ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَا يَدْبُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ  
إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

أي: وما من حيوان يدب على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه. قال  
الزَّجَّاجُ: الدَّابَّةُ اسْمٌ لِكُلِّ حَيْوَانٍ؛ لِأَنَّ الدَّابَّةَ اسْمٌ مَأْخُوذٌ مِنَ الدَّيْبِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ  
الْمَشْيُ الْخَفِيفُ، إِلَّا أَنَّهُ بِحَسَبِ عُرْفِ الْعَرَبِ مَخْتَصٌ بِذَوَاتِ الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ، وَقَدْ  
تُخَصُّ بِالْفَرَسِ.

والمراد بهذا اللفظ في هذه الآية المعنى الأصلي اللغوي، فيدخل فيه جميع  
الحيوانات، وهذا متفق عليه بين المفسرين، ولا شك أن أقسام الحيوانات وأنواعها كثيرة،  
وهي الأجناس التي تكون في البر والبحر والجبال، والله يحصيها دون غيره، وهو تعالى

(١) شرح شواهد الشافية للبغدادى: ٤/ ٢٨، ٢٩. قوله: «نجوم الليل والقمر»، فيه أفاويل كلها جيدٌ، فمنها: أن  
تنصب (نجوم، والقمر) بقوله: بكاسفة، والمعنى: الشمس طالعة ليست بكاسفة نجوم الليل والقمر، يقول:  
إنما تكسف النجوم والقمر بإفراط ضيائها، وهي من الحزن عليه قد ذهب ضياؤها فظهرت الكواكب.

(٢) تهذيب اللغة: ٧/ ٣٦٩، تاج العروس: ٦/ ٣٢٧.

(٣) القرطبي: ١٦/ ١٣٩، وفتح القدير: ٤/ ٥٧٥.



عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها ومسكنها وما يوافقها وما يخالفها، فالإله المدبّر للسموات والأرضين وطبائع الحيوان والنبات كيف لا يكون عالماً بأحوالها؟<sup>(١)</sup>.

### - التعبير عن قبح المنظر بالشیطان:

من عادات العرب القولية: تشبيههم المنظر القبيح بالشیطان، وقد نطق القرآن بذلك، فقال عز من قائل: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصفات: ٦٥]. وذلك وصفاً لشجرة الزقوم التي تنبت في قعر جهنم، والتي تحمل ثمراً قبيح المنظر، مشوه الصورة، كأنه رؤوس الشياطين.

والذي يؤكد هذا الوصف: أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة، قالوا: إنه شیطان، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة، قالوا: إنه ملك. قال امرؤ القيس<sup>(٢)</sup>:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ؟  
والعرب إذا رأت منظرًا قبيحاً قالت: كأنه شیطان الحَمَاطة، فشبّهه بأنياب الأغوال، وهي نوع من الشياطين، ولم يرها كما ارتسمت في خياله. وعلى عكس هذا تشبيههم الصورة الحسنة بالملك، وذلك أنهم اعتقدوا فيه خيراً محضاً لا شر فيه، فارتسم في خيالهم بأحسن صورة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وبهذا يُردُّ على بعض الملاحدة فقد طعن في هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يعرف، وحاصله: أنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج، بل يكفي كونه مركزاً في الذهن والخيال<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ١٧/١٤٨، وروح المعاني: ١٢/٢. هذه العادة من النادر الذي هدّبه القرآن الكريم.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٣٣.

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٦/١٢٤، روح المعاني: ٢٣/٩٥. والحَمَاطة: واحدة الحَمَاط، وهو: شجر شبيه بشجر التين، تألفه الحيات. وشیطان الحَمَاط: جنس من الحيات يألف سُكنى هذا الشجر. المعجم الوسيط: (حمط).

### - القنطار: المال الكثير:

من عادات العرب القولية: استعمال القنطار مبالغة في المال الكثير، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

المعنى: ومن أهل الكتاب من إن تأمنه على المال الكثير يؤده إليك كاملاً من غير إنقاص، ومنهم من إن تأمنه بدينار، أي: على دينار واحد لا يؤده إليك، إلا إذا بذلت مجهوداً عظيماً في مطالبته، وذلك بسبب اعتقاد اليهود استحلال أموال «الأميين» أي: العرب بالباطل، ويقولون أيضاً: ليس علينا في أكل أموالهم إثم؛ لأن الله - بحسب زعمهم - أحلها لهم. ولا غرابة فهم يقولون بألستهم الكذب وهم يعلمون ذلك.

والتعبير بالقنطار لا يعني تحديد الوزن المعروف به، بل يعني المال الكثير مبالغة؛ ويقال منه: قَنَطَرَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ عِنْدَهُ قَنَاطِيرٌ، أو قنطار من المال، والقنطار مأخوذ من: قنطرت الشيء، عقده وأحكمته، ومنه سُمِّيَتِ الْقَنْطَرَةُ لِأَحْكَامِهَا، وقيل: قنطرتة: عبيته شيئاً على شيء، ومنه سمي القنطرة. فشبّه المال الكثير الذي يُعْبَى بعضه على بعض بالقنطرة، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿رُئِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]<sup>(١)</sup>.

(١) المحرر الوجيز: ١/٤٠٩، والبحر المحيط: ٣/١٥٨، وفقه اللغة للثعالبي: ١١، واللسان (قنطر)، ٥/١١٨.

– «أولى لك» بمعنى التوعد والتهديد:

من عادات العرب القولية: استعمال كلمة أولى في الزجر والوعيد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ \* ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]. الآيتان وردتا في سياق الحديث عن الكافر الذي لا صدق ولا صلى، ولكن كذب بالقرآن، وتولى عن الإيمان، ثم مضى إلى أهله مختلاً في مشيته، يتوعد ربه بالهلاك المؤكد الذي لن يفلت منه، فقوله تعالى: ﴿أُولَىٰ لَكَ﴾ وعيدٌ، ثم كرر ذلك تأكيداً، أي: الشر أقرب إليك، والعرب تستعملها في التَّوَعْدِ والتَّهْدِيدِ. قال الزمخشري وتبعه الفخر الرازي، وأبو السعود والبيضاوي: ﴿أُولَىٰ لَكَ﴾: ويل لك، وأصله أولاك الله ما تكرهه، أو: دَنَوْتَ من الهلكة<sup>(١)</sup>.

– القصر: ما كان مشيداً:

من عادات العرب القولية: تسمية ما كان مشيداً بالجدران قصراً، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠] الآية الكريمة خطاب للنبي ﷺ تضمنت إثبات قدرة الله الفاتحة الذي إن شاء جعل لنبيه خيراً مما تمنَّاه له المشركون، فهو قادر على أن يجعل له في الدنيا حدائق كثيرة تجرى من تحتها الأنهار، ويجعل له قصوراً مشيدة.

والقصور: البيوت المبنية بالجدران، وكانت العرب تُسَمِّي ما كان من الشَّعْر والصوف والقصب بيتاً، وتسمي ما كان مشيداً بالجدران قصراً؛ لأنه قُصِرَ عن الداخلين والمستأذنين<sup>(٢)</sup>.

(١) الصحاح: ٢٥٣٠/٦، ومقاييس اللغة: ١٤١/٦، والمحجر الوجيز: ٥٠٣/٤، وأساس البلاغة: ٥٢٨/٢، والكشاف: ٦٦٥/٤، ومفاتيح الغيب: ٢٠٦/٣٠، ٨٠/٣١، وأنوار التنزيل: ٤٢٤/٥، وإرشاد العقل السليم: ٦٩/٩.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ١٣١/٣. وانظر: المحجر الوجيز: ٢٠١/٤، معالم التنزيل: ٣٦٢/٣.

### - وَصَفُهُمْ وَجَهَ مِنْ أُصِيبَ بِمَكْرُوهِهِ بِالسَّوَادِ:

من عادات العرب القولية: قولهم لكل من لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهه عَمًّا وحرزناً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرْنَا أَحَدَهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، الآية وصف لأهل الجاهلية الذين كانوا يَضيقون بالإناث ذَرْعاً، ومعنى ﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيّراً، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض، وإنما هو كناية عن عَمِّهِ بالبنات، واعتراضه على ربه، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهه عَمًّا وحرزناً<sup>(١)</sup>.

### - التذكية: الذبح:

من عادات العرب القولية: تفسيرهم التذكية بمعنى الذبح، ومن ذلك ما فسّر به قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]، الآية الكريمة وردت مبيّنة للمطعومات المحرمة كالحيوان الذي تفارقه الحياة بدون ذكاة، كذا الدم السائل المُرّاق، كذا لحم الخنزير، كذا ما ذُكِرَ عليه غيرُ اسمِ الله عند الذبح، كذا ما يحل أكله من البهيمة وغيرها التي حُبِسَ نَفْسُهَا حَتَّى ماتت، والتي ضُرِبَتْ بعصاً أو حجر حتى ماتت، والتي سقطت من مكان عال أو هَوَتْ فِي بئر فماتت، والتي ضُرِبَتْهَا أُخْرَى بِقَرْنِهَا فماتت، والتي أَكَلَهَا السَّبْعُ، كالأسد والنمر والذئب... والمستثنى من المحرمات ما تَمَّتْ تَذْكِيَّتُهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، أي: ما ذبح، والذكاة في كلام العرب: الذبح<sup>(٢)</sup>.

(١) معالم التنزيل: ١٠/١١٦.

(٢) القرطبي: ٥١/٦.

### – جَمْعُهُمُ الْأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمُنَاسِبَةَ مَعَ بَعْضِهَا فِي الْجُمْلَةِ:

من عادات العرب القولية: جَمْعُهُمُ الْأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمُنَاسِبَةَ فِي الْجُمْلَةِ، وَقَدْ نَطَقَ الْقُرْآنُ بِهَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ الْأَجْوَعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى \* وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُوا فِيهَا وَلَا تَضْحَكُوا﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، الْمَعْنَى: أَنْ لَكَ يَا آدَمُ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ نِعْمَةٌ تَامَةٌ وَعَطِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ: أَلَّا يَصِيبَكَ جُوعٌ وَلَا عُرْيٌ وَلَا ظَمَأٌ، وَلَا بَرُوزٌ لِلشَّمْسِ يُوْذِيكَ، وَهُوَ الضَّحَاءُ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْجُوعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الْعُرْيِ، وَالظَّمَأَ مَعَ الضَّحَاءِ، وَكَانَ عُرْفُ الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ الْجُوعُ مَعَ الظَّمَأِ لِلتَّنَاسُبِ، وَالْعُرْيِ مَعَ الضَّحَاءِ لِأَنَّهَا لَا تَتَضَادُّ، إِذِ الْعُرْيُ يَمَسُّ بِسَبَبِهِ الْبَرْدَ فَيُوْذِي، وَالْحَرُّ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالضَّاحِي، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ مَهْيَعٌ، أَيُّ: وَاضِحَةٌ وَاسِعَةٌ بَيِّنَةٌ، فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْ تَنَاسَبَ فِي الْكَلَامِ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ<sup>(١)</sup>:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لَلدَّةِ      وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ  
وَلَمْ أَسْبَأَ الزَّقَّ الرُّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ      لَخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ  
وَالتَّرْتِيبُ يُوْجِبُ نَظْمَ الْبَيْتَيْنِ هَكَذَا:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقُلْ      لَخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ  
وَلَمْ أَسْبَأَ الزَّقَّ الرُّوِيَّ لَلدَّةِ      وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ  
لِأَنَّ رُكُوبَ الْجَوَادِ مَعَ ذِكْرِ كُرُورِ الْخَيْلِ أَجْوَدُ، وَذِكْرُ الْخَمْرِ مَعَ ذِكْرِ الْكُوعَابِ أَحْسَنُ. وَالَّذِي جَاءَ بِهِ امْرُؤُ الْقَيْسِ هُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَضَعُ الشَّيْءَ مَعَ خِلَافِهِ أَوْ ضِدِّهِ، فَيَقُولُونَ: الشَّدَّةُ وَالرِّخَاءُ، وَالْبُؤْسُ وَالنَّعِيمُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى.

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٥، والمحرر الوجيز: ٦٧/٤.

### - ذكرهم للمفرد النكرة مراداً به معنى الجمع المعروف باللام:

من عادات العرب القولية: ذكُرهم للمفرد النكرة مراداً به معنى الجمع المعروف باللام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الألوسي: «واختيار «شجرة» على أشجار أو شجر؛ لأن الكلام عليه أبعَدُ عن اعتبارِ التوزيع بأن تكون كل شجرة من الأشجار أو الشجر قلماً، المُخْلِ بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه، أن هذا مما وقع فيه المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩]. وقول العرب: هذا أول فارس، وهذا أفضل عالم، يراد: من الآيات، ومن الرحمات، ومن الدوابِّ، وأول الفرسان، وأفضل العلماء؛ ذكر المفرد النكرة وأريد به معنى الجمع المعروف باللام، وهو مَهْجَعٌ في كلام العرب معروف، وكذلك يُقَدَّرُ هنا من الشجرات أو من الأشجار فلا تغفل<sup>(١)</sup>.

### - تقديمهم في الشَّرِّ اسمَ المدعو عليه:

من عادات العرب القولية: تقديمهم اسم المدعو عليه في الشر، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨] خطاباً لإبليس عليه لعنة الله. قال القرطبي: «جرت عادة العرب بتقديم اسم المدعو عليه في الشر كقولهم: عليه لعنة الله وغضب الله، لذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾»<sup>(٢)</sup>.

(١) روح المعاني: ٩٧/٢١، وانظر: البحر: ١١٠/٩، وفتح القدير: ٤/٢٤٢.

(٢) القرطبي: ٥/٣١٠.

- عدم ذكر الحرائر بالاسم:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

لم يذكر الله عز وجل امرأةً وسَمَّها باسمها في كتابه إلا مريم بنت عمران، فإنه ذَكَرَ اسمها في نحوٍ من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون أسماءهن، بل يَكُونون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال ونحو ذلك، فإن ذكروا الإماء لم يَكُونوا عنهن، ولم يصونوا أسماءهن عن الذِّكْرِ والتصريح بها، فلما قالت النصراري في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يُكَنَّ عنها بالأُمومة والعبودية التي هي صفة لها، وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إماءها<sup>(١)</sup>.

- تعبير العرب عن شدة ستر الشيء بقولهم: (أكاد أخفيه):

من عادات العرب القولية: قولهم: (أكاد أخفي الشيء) يريدون شدة ستره عن الآخرين، وفي ضوء ذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]، الآية محمولة على ما جرت به عادة العرب في كلامهم، من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء قال: كِدْتُ أَخْفِيهِ؛ والمعنى: أنه لشدة إبهامها أكاد أخفيها، فلا أظهرها البتة.

ومن هذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظْلَمُونَ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) القرطبي: ٢٢/٦.

(٢) البخاري، كتاب: الحدود، باب: الصَّدَقَةُ بِالْيَمِينِ برقم: ١٣٣٤، (٢/٢٤٢). ومسلم، كتاب: الرِّكَاء - باب: فَضْلِ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ برقم: ١٧١٢، (٥/٢٢٩).

ومنه أيضاً قول الشاعر:

أَيَّامٌ تَصْحَبُنِي هِنْدٌ وَأَخْبِرُهَا مَا كِدْتُ أَكْتُمُهُ عَنِّي مِنَ الْخَبْرِ  
فَأَكَادُ أَخْفِيهَا أَي: لا أظهر عليها أحداً<sup>(١)</sup>.

وفائدة إخفائها إلا قليلاً - بإظهار علاماتها قبلها - التخويف والتهويل، والاجتهاد في الطاعة، ولكن تحديد وقت قيام الساعة ذاته لا يعلمه إلا علام الغيوب، والأدلة متكاثرة على ذلك.

### - الالتفات:

من عادات العرب القولية: التلوين في الخطاب لحكم بلاغية تدور حول تقوية الكلام وتأكيده، ولفت النظر إليه، وهذا ما يسمّى بالالتفات، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّاكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بصيغة التعظيم. ونظيره قوله تعالى في «الأنعام» [٩٩]: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ جَبًا مُتَرَاكِبًا﴾ الآية، وقوله في «فاطر» [٢٧]: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾، وقوله في «النمل» [٦٠]: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ الآية.

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات - كلها في إنبات النبات - يدل على تعظيم شأن إنبات النبات؛ لأنه لو لم ينزل الماء، ولم يُنبَت

(١) القرطبي: ١١/١٨٥، وانظر: النيسابوري: ٥/٢٧٠، ومفاتيح الغيب: ١٠/٣٧٠، ولباب التأويل:

٤/٣٦٧، والبحر: ٨/٦٧، واللباب: ١١/١٤٣، وروح المعاني: ١٢/١٢٢.



شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً، فهو يدلُّ على عَظَمَتِهِ جل وعلا، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له جل وعلا<sup>(١)</sup>.

يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] قال أولاً: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ثم قال ثانياً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣] فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب في ذلك<sup>(٢)</sup>.

### - اعتبار العرب سَعَةَ الشيء بعرضه دون طوله:

من عادات العرب القولية: اعتبارهم سَعَةَ الشيء بذكر العرض دون الطول، وقد جاء بذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْفُورٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] أي: وجنة عرضها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض.

قال الحسن: يعني: جميع السموات والأرضين مبسوطتان، كل واحدة إلى صاحبته.

والعَرْضُ أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تُعَبَّرُ عن سَعَةِ الشيء بعرضه دون طوله، قال عبيد بن أيوب بن ضرار العنبري<sup>(٣)</sup>:

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ، وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْرُودِ، كَيْفَةُ حَابِلٍ

(١) أضواء البيان: ٩٦/٤.

(٢) القرطبي: ٢٤٦/١٦.

(٣) الحماسة البصرية: ٥٣٣/١، القرطبي: ٢٥٦/١٧، اللباب: ١٤٠/١٥، فتح القدير: ١٥٧/٧.

والحابل: الصائد، والكفة: حَبْلُهُ الذي يصيد به.

### - إضافة العرب الضُّحَى للعشي:

من عادات العرب القولية: إضافتهم الضُّحَى إلى العشية، يريدون ذات اليوم الذي يكون فيه هذه العشية، وقد جاء بذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يُورِثُونَهَا لَوِ يَلْبَسُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

قد يقول قائل: وهل للعشية ضحى؟ وإنما الضحى لصدر النهار، ولكن أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أول النهار، أنشد الكسائي<sup>(١)</sup>:

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامراً فِي دَارِهَا  
جُزءاً تَعَادَى طَرْفِي نَهَارِهَا  
عَشِيَّةَ الْهَلَالِ أَوْ سِرَارِهَا

أراد: عشية الهلال، أو سرار العشية، فهو أشد من آتيك الغداة أو عشيتها<sup>(٢)</sup>.

### - إطلاق الوصف بالبعد على ما لا وجود له البتة:

من عادات العرب القولية: إطلاق وصف البعيد على الشيء الذي لا وجود له في الحقيقة أصلاً، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْفَعُهُ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، فإن قيل: قد قال: ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣]، ولا نفع في عبادة الصنم أصلاً؟ قيل: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون للشيء الذي لا وجود له أصلاً بعيد، كقوله تعالى: ﴿لَوْ دَامَتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، أي: لا رَجَعَ أصلاً، فلما كان نفع الصنم بعيداً، على معنى: أنه لا نفع فيه أصلاً، قيل: ضَرُّهُ أَقْرَبُ؛ لأن الضرر حاصل، بخلاف النفع<sup>(٣)</sup>.

(١) شرح ديوان الحماسة: ١٦١.

(٢) القرطبي: ٢١٠/١٩، وفتح القدير: ٤١٦/٧، والتحرير والتنوير: ٩١/١٦.

(٣) البغوي: ٣٦٩/٥.

### - مخاطبة الواحد بلفظ الجمع:

من عادات العرب القولية: مخاطبة الواحد بلفظ الجمع على سبيل التعظيم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، والآية تخبر عن حال المحتضر من الكافرين أو المفرطين في أمره تعالى، عندما يشرف على الخروج من الدنيا ويشاهد ما أُعِدَّ له من العذاب يقول: رب أرجعوني إلى الدنيا، ولم يُقَل: أُرْجِعْني، وهو يسأل الله وحده الرجعة، وذلك على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم، ولا أعظم من الله تعالى، كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُوَلْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومثله كثير في القرآن<sup>(١)</sup>.

### - تذكير المؤنث وتأنيث المذكر:

من عادة العرب القولية: تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأَنَّزِلَ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، والمعنى: إن نشأ نزل على الكافرين معجزة من السماء مُخَوِّفة لهم تُجَبِّرُهُمْ على الإيمان، فتصير أعناقهم خاضعة ذليلة، ولكننا لم نشأ ذلك؛ لأن الإيمان الصحيح ما كان اختياراً. وقد رد الخضوع على المضممر الذي أضاف الأعناق إليه. وقال قوم: ذَكَرَ الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله: «هم» على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث<sup>(٢)</sup>.

(١) البغوي: ٥/٤٢٨، الخازن: ٤/٤٧٤

(٢) البغوي: ٦/١٠٦.

## - التكرار بهَدَفِ الإِبْلَاحِ وَالإِشْبَاعِ وَالإِتْسَاعِ:

من عادات العرب القولية: تكرارهم الكلام لغاية هي الإِبْلَاحُ وَالإِشْبَاعُ وَالإِتْسَاعُ، وقد جاء قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَكَّعْتُمْ كَذَّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] مطبقاً هذه العادة، إذ كرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإِبْلَاحِ وَالإِشْبَاعِ وَالإِتْسَاعِ، يعدد على الخلق آلاءه، وَيُفَصِّلُ بَيْنَ كُلِّ نِعْمَتَيْنِ بِمَا يَنْبَهُمُ عَلَيْهَا، كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيدي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن عُزَيَاناً فَكَسَوْتُكَ أفتنكر هذا؟ ألم تكَّ خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب، حَسَنٌ تَقْرِيراً<sup>(١)</sup>.

## - النكرة إذا أعيدت نكرة فالثاني غير الأول، والمعرفة بالعكس:

من عادات العرب القولية: أنهم إذا ذكروا اسماً معرفة، ثم أعادوه كان الثاني هو الأول، وإذا ذكروا نكرة ثم أعادوها مثلها صاروا اثنين، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، إذ كرر الله تعالى الْعُسْرَ بلفظ المعرفة واليسر بلفظ النكرة، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرفة، ثم أعادته كان الثاني هو الأول، وإذا ذَكَرَتْ نَكْرَةً، ثم أعادته مثله صار اثنين، وإذا أعادته معرفة فالثاني هو الأول، كقولك: إذا كسبت درهماً أنفقت درهماً، فالثاني غير الأول، وإذا قلت: إذا كسبت درهماً أنفقت الدرهم، فالثاني هو الأول، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف، فكان عسراً واحداً، واليسر مكرر بلفظ التنكير، فكانا يُسْرَيْنِ، فكانه قال: فإن مع العسر يسراً، إن مع ذلك العسر يسراً آخر، وهذا مبني على أن تنكير

(١) البغوي: ٤٤٣/٧، وفتح القدير: ١٠٢/٧.

﴿يُسْرًا﴾ للتفخيم وتعريف العسر للعهد، أي: العسر الذي أنتم عليه أو الجنس، أي: الذي يعرفه كل أحد، فيكون اليسر الثاني مغايراً للأول، بخلاف العسر<sup>(١)</sup>.

### - إطلاق الجزء وإرادة الكل:

من عادات العرب القولية: تعبيرهم ببعض الشيء مع إرادتهم الكل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] ﴿تَبَّتْ﴾ أي: خَابَتْ وخسرت يدا أبي لهب، أي: هو، وقد ذكرت الآية الكريمة اليدين، وليستا المخصوصتين بالهلاك من عين صاحبهما، بل المراد هلاك أبي لهب بالكلية، وذلك وفق عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله<sup>(٢)</sup>.

(١) البغوي: ٤٦٥/٨. قال البقاعي: «ذكر في الكشف: قال: واعلم أن المراد أن هذا هو الأصل عند الإطلاق وخلو المقام عن القرائن، وإلا فقد تعاد النكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤] يعني قوة الشباب، ومنه باب التأكيد اللفظي، وقد تعاد النكرة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى: ﴿وَهَكَذَا كَتَبْنَا بُرُؤُنَا لِمَنْ أَزَاكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٥، ١٥٦]، وقال غيره: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصَلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] المراد بالنكرة خاص وهو الصلح بين الزوجين، وبالمعرفة عام في كل صلح جائز ﴿رِذْئَهُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فإن الشيء لا يكون فوق نفسه... انتهى. قال: «وقد تعاد المعرفة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال غيره: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الأول عام والثاني خاص، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] الأول العمل والثاني الثواب، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] الأولى القاتلة والثانية المقتولة... انتهى. قال: «وقد تعاد المعرفة نكرة مع عدم المغايرة، كقوله تعالى:

﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: ١١٠]. نظم الدرر: ٤٥٩/٩. وانظر: الخازن: ٢٨٢/٦.

(٢) معالم التنزيل: ٥٧٨/٨، وزاد المسير: ١٩٨/٦، ولباب التأويل: ٣٢٩/٦.

## - وَصَفُ الشَّيْءِ بِمَا يُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ:

من عادات العرب القولية: وصف الشيء بما يشتق منه على سبيل المبالغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رُئِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِٔ﴾ [آل عمران: ١٤] فالمقنطرة وصف للقناطر مع اتحاد مادة الاشتقاق بين اللفظين، وقد جاء ذلك على سبيل المبالغة، قال الألوسي: «ومن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشتق منه للمبالغة كظل ظليل، وهو كثير في وزن فاعل، ويرد في المفعول كقوله تعالى: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] و﴿نَسِيًا مَنَسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، وقيل: المقنطرة المضعفة، وخصها بعضهم بتسعة قناطر، وقيل: المقنطرة المحكمة المحصنة من قنطرت الشيء إذا عقدته وأحكمته، وقيل: المضروبة دنانير أو دراهم، وقيل: المنضدة التي بعضها فوق بعض، وقيل: المدفونة المكنوزة<sup>(١)</sup>، والاختلاف هنا اختلاف تنوع إذ كلُّ الأقوالِ تدورُ حول المبالغة في الحب غير المحدود لمادة المال أياً كان نوعها.

## - الْاِكْتِفَاءُ بِذِكْرِ أَحَدِ الضَّدِّينِ عَنِ ذِكْرِ الْآخَرِ:

من عادات العرب القولية: الاكتفاء بذكر أحد الضدَّين عن ذكر الآخر، ومن ذلك ورود قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسِرُّوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]، وذلك في شأن أهل الكتاب، الذين منهم جماعة مستقيمة على أمر الله ذكرت أوصافها في الآي، وأخرى ليست كذلك، لم تذكر لنكتة هي: الاكتفاء بذكر أحد الضدَّين دليلاً على وجود الضد، قال الألوسي: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن

(١) روح المعاني: ٤٤٥/٢.

بسبب اتصافهم بها كما يشعر به العدول عن الضمير ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من عداد الذين صلحت عند الله تعالى حالهم، وهذا ردُّ لقول اليهود: ما آمن به إلا شرارنا. وقد ذهب الجُلُّ إلى أن في الآية استغناءً بذكر أحد الفريقين عن الآخر على عادة العرب في الاكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر، والمراد: ومنهم من ليسوا كذلك<sup>(١)</sup>.

### - وَصْفُ الشَّيْءِ بِالصَّدَقِ يَعْنِي مَدْحَهُ بِصِفَةِ عَامَةٍ:

من عادات العرب القولية: أنهم إذا أرادوا أن يمتدحوا شيئاً وصفوه بالصدق، وفي ضوء ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءَ الصَّدَقِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، ﴿مُبُوءَ الصَّدَقِ﴾ أي: منزلاً صالحاً مرضياً، وهو اسم مكان منصوب على الظرفية، ويحتمل المصدرية بتقدير مضاف، أي: مكان مبوء وبدونه، وقد يجعل مفعولاً ثانياً، وأصل الصدق ضد الكذب، لكن جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، فقالوا: رجل صدق، إذا كان كاملاً في صفته صالحاً للغرض المطلوب منه، كأنهم لاحظوا أن كل ما يُظن به فهو صادق<sup>(٢)</sup>. إذن يجب حَمْلُ الوَصْفِ بِالصَّدَقِ عَلَى المَدْحِ.

### - خُرُوجُ صِيغَةِ التَّفْضِيلِ عَنِ بَابِهَا:

من عادات العرب القولية: إخراج صيغة التفضيل عن بابها، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيْرًا﴾ [الفرقان: ١٥]، أي: قل يا أيها الرسول للمكذبين بالآخرة أهذه النار التي وُصِفَتْ لكم

(١) روح المعاني: ١٨١/٢.

(٢) روح المعاني: ١١٨/٨.

- في الآيات السابقة - خيرٌ أم جنة الخلد التي وُعد بها الخائفون من عذاب ربهم؟! ولا تعقل المفاضلة بين الجنة والنار، ولكن لما كانت عادة العرب في بيان فضل الشيء دون غيره الإتيان بصيغة أفعال تنبيهاً على أن سلب الخير عن مقابله لا يخفى على أحد، أو يكون ذلك على طريق التنزل وإرخاء العنان؛ تنبيهاً للعاقل على أنه يكفيه في الرجوع عن الغيِّ طروق احتمال لكون ما هو عليه مفضولاً. قال: ﴿حَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَّ الْمُتَّقُونَ﴾ (١).

قال أبو حيان: إن ﴿حَيْرٌ﴾ هنا ليس للدلالة على الأفضلية، بل جاءت على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقول حسان:

..... فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِ كَمَا الْفِدَاءِ

وقولهم: الشقاء أحب إليك أم السعادة، والعسل أحلى من الخل، وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، ولا اختصاص لذلك في استفهام أو خبر (٢).

- «له الأمر» تقال لمن كانت له الدولة، و«عليه الأمر» بخلافها:

من عادات العرب القولية: قولهم: «لفلان الأمر»، أي: له الدولة والغلب، بخلاف عليه الأمر التي تعني الظفر لعدوه، وفي ذلك جاء قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا آلَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فقوله سبحانه:

(١) نظم الدرر: ٩/٦.

(٢) البحر: ٣٥٠/٨، الألوسي: ٥٤/١٤.



﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هل لنا من الشيء الذي كان يعدنا به محمد، وهو النصره والقوة شيء؟ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، وكان غرض المنافقين من ذلك القول الاستدلال بذلك على أن رسول الله ﷺ كان كاذباً في ادعاء النصره والعصمة من الله تعالى لأمته<sup>(١)</sup>.

### - ذكر ما وُضِعَ للتقليل مراداً به التكثير:

من عادات العرب القولية: أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظاً وُضِعَ للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظاً وُضِعَ للشك، ومن هنا فسرت ﴿رُبَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] - وهي الموضوعه في أصل الاستعمال للشك والتقليل - باليقين والعزم، إذ المقصود بها في الآية: إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض، فالعرب تقول: ربما ندمت على ما فعلت، ولعلك تندم على فعلك، وإن كان العلم حاصلًا بكثرة الندم ووجوده بغير شك، إذ «من عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظاً وُضِعَ للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظاً وُضِعَ للشك»<sup>(٢)</sup>.

### - تغليب الأكمل:

من عادات العرب القولية: تغليب الكامل على الناقص، وفي ضوء ذلك يتبين ورود كلمة: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ في آية البقرة [٣١]: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، دون عَرْضِهَا تغليباً للكامل على الناقص، يقول الفخر: «فإن قيل: فلما علمه الله تعالى - أي: آدم عليه السلام - أنواع جميع

(١) الفخر ٤/٤٢٦، وانظر: النيسابوري: ٣٧٢/٢، والبيضاوي: ٣٧٢/٢.

(٢) الفخر: ٩/٢٧٧، وانظر: النيسابوري: ٤/٤٧٤.

المُسَمَّيَاتِ، وكان في المُسَمَّيَاتِ ما لا يكون عاقلاً، فَلِمَ قال: عَرَضَهُمْ ولم يقل عَرَضَهَا؟ قلنا: لأنه لما كان في جملتها الملائكة والإنس والجن وهم العقلاء، فغلب الأكمل؛ لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص»<sup>(١)</sup>.

ومن عادات العرب القولية - في باب التغليب: تسمية الشيين المتقابلين باسم أحدهما، ومن هنا فُسر «المشرقين» في قوله تعالى - على لسان من أعرض عن ذكر الرحمن تُجاه قرينه من الشياطين -: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَقَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨] بالمشرق والمغرب، والمعنى: وددت لو حصل بيني وبينك بعدُ على أعظم الوجوه، كبعد ما بين المشرق والمغرب، ومن هذا القبيل قول الفرزدق<sup>(٢)</sup>:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ  
يريد الشمس والقمر. ويقولون للغداة والعصر: العصران، ولأبي بكر وعمر:  
العمران، وللماء والتمر: الأسودان، ولصلاتي المغرب والعشاء العشاءان، وكلُّ  
محمول على التغليب<sup>(٣)</sup>.

ومن عادات العرب القولية - في باب التغليب: التغليب لحكمة، كتغليبهم جَمَعَ مَنْ يعقل إذا كان معه من لا يعقل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥].

بل أبلغ من ذلك أنهم إذا وصفوا ما لا يعقل بصفة من يعقل غلبوا فيه من يعقل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] جمعهم جمع من يعقل؛ لوصفهم بالسجود الذي هو صفة من يعقل،

(١) مفاتيح الغيب: ١٦٢/٢.

(٢) ديوانه ٥١٩، اللسان: شرق: ١٠/١٦٣.

(٣) الفخر: ١٣/٤٧٦، وانظر: تهذيب اللغة: ساد ٣٣/١٣.

وكتغليهم الكثرة على القلة، حتى إنهم يصفون بالكرم والبخل جمعاً أكثرهم متصف بالكرم أو البخل<sup>(١)</sup>.

### - إضافة الأعمال إلى اليد:

من عادات العرب القولية: إضافتهم الأعمال إلى اليد خصوصاً، مع إرادتهم كل ما صدر من الأعضاء، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠] إذ قيدت الآية ما قدمه الكافر من عمل بيديه فحسب، والمراد ما فعل من المعاصي، وما اكتسب من الآثام بصفة عامة، بيد أو بغير يد، ولكنه «جرت عادة العرب أن تضيف الأعمال إلى اليد؛ لأنها آلة أكثر العمل»<sup>(٢)</sup>.

### - الاستفهام عما مضى مع التيقن بأن المخاطب لا علم له بالمستفهم عنه:

من عادات العرب القولية: الاستفهام عما مضى، مع التيقن بأن المخاطب لا علم له بالمستفهم عنه، لفتاً للنظر وتنبهاً على الاهتمام بشأن الخبر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، فهو خطاب للنبي ﷺ ولا علم له بما مضى، ولكنه خوطب بالاستفهام على عادة العرب في الإعلام بالأمر الماضي وإن كان المخبر عالماً بأن المخاطب لا علم له بذلك؛ لأن المقصود ليس إلا التنبيه على أن ذلك الأمر مما ينبغي الاهتمام به والبحث فيه ليعرف ما فيه من الأمور الجليلة. قال أبو حيان: الاستفهام هنا «تقرير لتجتمع نفس المخاطب، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره: هل سمعت ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي بأن يقول: لا، ويستطعمك الحديث»<sup>(٣)</sup>.

(١) الإحكام لابن حزم: ٢٨٠/٢.

(٢) نظم الدرر: ٣٤٧/٥.

(٣) نظم الدرر: ٢٠١/٨، وانظر: البحر المحيط: ١٣٨/١٠.

### – إذا عدلت العرب بالشيء عن معناه نقصت حروفه:

من عادات العرب القولية: أنها إذا عدلت عن الشيء نقصت حروفه كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ [الفجر: ٤] ولم يقل: «يسري» بالياء؛ لأن عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسري وإنما يسرى فيه، نقص منه حرف ليدل مخالفة الظاهر في اللفظ على مخالفته في المعنى وهو معنى دقيق لا يفتن إليه إلا الألباء، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَخَّتَ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] الأصل بغية، فلما حول عن فاعل نقص منه حرف<sup>(١)</sup>.

### – يقولون: خُلِقَ من كذا مبالغة في وصفه:

من عادات العرب القولية: قولهم: خُلِقَ فلان من كذا، مبالغة في وصفه، وقد وافق القرآن هذه العادة، فقال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ومعلوم أصل خلق الإنسان، ولكن الآية تبين أن الإنسان

(١) البرهان للزركشي: ١٠٧/٣، وانظر: المحرر الوجيز: ٤٠١/٢، والقرطبي: ٤٢/٢٠، والإتقان: ٢٩٤/١، وروح المعاني: ١٤٧/٢٠. قال القرطبي: «وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثبات الياء في الحاليين على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل وبحذفها في الوقف، وروي عن الكسائي، قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل وبحذفها في الوقف اتباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حذف الياء في الحاليين جميعاً؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة، واختيار أبي عبيد اتباعاً للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي. قال الفراء: قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها، وأشد بعضهم: كَفْنَاكَ كَفًّا مَا تُسَلِّقُ دِرْهَمًا جُودًا وَأُخْرَى تُعْطِ بِالسِّيفِ الدِّمَاءَ» تفسير القرطبي: ٤٢/٢٠.

قال المؤرِّج السِّدُوسِي: سألت الأَخْفَشَ عن العلة في إسقاط الياء من يسر، فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبتُّ على باب داره سنة، فقال: الليل لا يسري وإنما يسرى فيه، فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ ولم يقل: بغية؛ لأنه صرفها عن باغية. القرطبي: ٤٢/٢٠.

خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ أَي: خلق عَجولاً، يستعجل الأشياء قبل وقوعها، وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. والعرب تقول: خُلِقَ من كذا للمبالغة، كما يقولون للرجل الذكي: هو نار تشتعل، وللرجل السخي: خُلِقَ من كرم، والعرب قد تسمي المرء بما يكثر منه، فتقول: ما أنت إلا أكلٌ ونومٌ، وما هو إلا إقبال وإدبار، ومن ذلك قول الخنساء<sup>(١)</sup>:

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتَ حَتَّى إِذَا اذْكَرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ  
قال سيبويه<sup>(٢)</sup>: «جعلها الإقبال والإدبار فجاز على سعة الكلام». قال ابن جني: «الأحسن في هذا أن يقول: كأنها خُلِقَتْ من الإقبال والإدبار، لا على أن يكون من باب حَذْفِ المضاف، أي: هي ذاتُ إقبال وإدبار»<sup>(٣)</sup>.

#### - استعمال الأخذ بالناصية بمعنى القدرة على المأخوذ بها:

من عادات العرب القولية: استعمال الأخذ بالناصية بمعنى القدرة على المأخوذ بها، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، إذ برهن نبي الله هود عليه السلام على عدم قدرة قومه على ضربه مع توكله عليه سبحانه بقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، أي: إلا هو مالك لها قادر عليها يُصَرِّفُها كيف يشاء غير مستعصية عليه سبحانه، والناصية مُقَدَّمُ الرأس، وتطلق على الشعر النابت عليها، واستعمال الأخذ بالناصية عرف في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تَجُرُّ الأسيَر الممنون عليه، علامة على أنه قد قُدِرَ عليه، وقبض على ناصيته<sup>(٤)</sup>.

(١) ديوان الخنساء: ٧٢.

(٢) الكتاب ١/ ٣٣٧.

(٣) اللسان: قبل، ١١/ ٥٣٤، وانظر: مفاتيح الغيب: ٢٢/ ١٤٨، أضواء البيان: ٢/ ٢٠٤.

(٤) المحرر الوجيز: ٣/ ١٨١، وروح المعاني: ١٢/ ٨٣.

## - وَصَفُهُم بِالْهَوَاءِ كُلِّ شَيْءٍ خِلا مِنْ مِضْمُونِ:

من عادات العرب القولية: وصفهم الشيء الخالي من أي مضمون بوصف «هواء»، ومن ذلك ما نطق القرآن به في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] هذه الآية الكريمة تتحدث عن الظالمين يوم يقومون من قبورهم مسرعين رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئاً لهول القيامة، وأفئدتهم هواء لا شيء فيها، ومنه سمي ما بين السماء والأرض هواء؛ لخلوه، وقيل: خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من الخوف، وقيل: جوفاء لا عقول لها، والعرب تسمي كل أجوف خلواً هواءً، قيل: وأفئدتهم هواء، أي: متمردة تمور في أجوافهم، ليس لها مكان تستقر فيه، وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم<sup>(١)</sup>.

## - إِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَى مَا لَمْ يُمَكِّنْ مِنْهُ الْفِعْلُ:

من عادات العرب القولية: إضافتهم الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل، ومن ذلك ما جاء وصفاً للقيامة في قوله تعالى: ﴿حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]، الخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة والعز والمهانة، ونسب سبحانه وتعالى الرفع والخفض إلى القيامة توسعاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل، والرافع والخافض في الحقيقة هو الله تعالى. والعرب يقولون: ليل قائم، ونهار صائم، أي: قمت في ليلك وصمت في نهارك، وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُؤٌ آيِيلٌ وَالتَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣].

ومن ذلك أيضاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْرَرْنَا لِلضَّلَالَةِ بِأَلْهَدَىٰ فَمَا رِيحَتْ يَجْرُدُهُمْ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، إذ إسناد الريح إلى التجارة والمراد التاجر؛

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/٥٠٣.

لأن من عادة العرب قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، والمعنى: ربحت وخسرت في بيعك، أي فما ربحوا في تجارتهم. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] معنى والنهار مبصراً أي: مضيئاً لتهدوا به، والمبصر: الذي يُبصر، والنهار يُبصرُ فيه، وقال: ﴿مُبْصِرًا﴾ تجوزاً وتوسعاً على عادة العرب، قال جرير<sup>(١)</sup>:

لقد لُمْتنا يا أمَّ عَيْلانَ في السُّرى وَنَمْتِ وما ليلَ المَطِيِّ بنائمٍ

- التعبير بـ ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ونحوها للدلالة على دوام الشيء وتأبيده:

من عادات العرب القولية: تعبيرهم عن دوام الشيء وتأبيده بقولهم: ما دامت السموات والأرض ونحوها، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، أي: دوام السموات والأرض، والتقدير: وقت ذلك، وقد أجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده، كقولهم: لا آتيك ما جنَّ ليلٌ، أو سالَ سَيْلٌ، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم الله تخليد الكفرة بذلك، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض<sup>(٢)</sup>.

- السُّؤالُ عَمَّا يُعْرَفُ بِدَاهَةٍ لِنَكْتة:

من عادات العرب القولية: سؤالهم عما يُعرف بداهة، لغاية هي ضم الإقرار باللسان إلى المعرفة القلبية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلْكَ بِمِثْلِكَ بِمِثْلِكَ يَلْمُوسَى﴾ [طه: ١٧] والله سبحانه بكل شيء عليم، والكليم عليه السلام يعلم يقيناً ما يمينه من كونها عصا،

(١) ديوان جرير: ٢/٩٩٣، القرطبي: ١/٢١١، ٨/٣٦٠، وتفسير القرآن العظيم: ٤/٣٥١، واللباب: ١٥/٧٢، فتح القدير: ١/٤١.

(٢) القرطبي: ٩/٩٩، وانظر: البغوي: ٤/٢٠٠، وتفسير القرآن العظيم: ٤/٣٥١، واللباب: ٩/١٦٧.

ومن هنا كان السؤال سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيه نبي الله موسى عليه السلام وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا قلبها حية علم أنه معجزة عظيمة. وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه<sup>(١)</sup>.

### - أصل الشيء أمه:

من عادات العرب القولية: تسميتهم أصل كل شيء أمه، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وأم القرى أصل القرى، وهي مكة المكرمة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، وأم الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، والقرآن محفوظ فيه من التحريف والتبديل والتغيير. «والعرب تُسمِّي أصل كل شيء أمه» حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان<sup>(٢)</sup>.

### - استعمال «إن» لغير شك:

من عادات العرب القولية: استعمالهم «إن» التي للشك في غير الشك، وقد جاء القرآن بذلك، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَشَدِيدٍ ۗ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] الخطاب في الآية الكريمة للكافرين، و«إن» لغير شك؛ لأن الله تعالى علم أنهم مرتابون، ولكن هذه «عادة العرب، يقول الرجل لابنه: «إن كنت ابني فأطعني» وهو على يقين من أنه ابنه<sup>(٣)</sup>.

(١) البغوي: ٢٦٨/٥، واللباب: ١١/١٤٧.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٢٧/٢٧، وانظر: المخصص لابن سيده: ٤/١١٦.

(٣) زاد المسير: ٣٣/١.



– «أهمته نفسه» تقال للخائف:

من عادات العرب القولية: قولهم: قد أهمته نفسه، يعنون بذلك أنه خائف وجل، وفي ضوء ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] هؤلاء الذين أهمتهم أنفسهم ثلثة من المنافقين كان همهم خلاص أنفسهم. قال أبو مسلم: من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف، قد أهمته نفسه، فهؤلاء المنافقون لشدة خوفهم من القتل طار النوم عنهم؛ لأنه عند الخوف على النفس يصير الإنسان ذاهلاً عن كل ما سواها، ولأنهم كانوا مكذبين بالرسول ﷺ في قلوبهم، فلا جرم عظم الخوف في قلوبهم<sup>(١)</sup>.

– «كادت السموات تنشق» للإخبار عن الشيء العظيم:

من عادات العرب القولية: أنهم يخبرون عن الشيء العظيم بقولهم: «كادت السموات أن تنشق له» وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]. أي: تكاد السموات تتشقق من عظمة من فوقهن وهو الله تعالى، وذلك من شدة هيبتهن من الله، ويقال: من ثقل الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم، ويقال: إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء عظيم، قالوا: كادت السموات تنشق له، وهذا لقب قول المشركين ولجراتهم على الله تعالى، ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا \* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَمَنْجُرُ الْجِبَالِ هَذَا \* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مریم: ٨٩ - ٩١]<sup>(٢)</sup>.

(١) الفخر: ٤/٤٢٤.

(٢) لطائف الإشارات للقسيري: ٣/٣٤٢.

### - قولهم «تحيتك الضرب» تهكماً:

من العادات العربية القولية: قول العرب تهكماً: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، وقد نطق القرآن الكريم بمفهوم ذلك، فقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] حيث بين الله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِ اللَّهِ يَغْفِرُ لَهُمْ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النساء: ١٣٧] أنه لا يغفر للمنافقين كفرهم، ولا يهديهم إلى الجنة، ثم قال: وكما لا يوصلهم إلى دار الثواب فإنه مع ذلك يوصلهم إلى أعظم أنواع العقاب، وهو المراد من قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقوله: ﴿بَشِّرِ﴾ تهكم بهم، والعرب تقول: تحيتك الضرب، وعتابك السيف<sup>(١)</sup>.

### - «فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ» بمعنى خَرَجَتْ:

من عادات العرب القولية: قولهم: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ من قشرها بمعنى خرجت، وقد جاء القرآن الكريم بكلمة فسق في آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَهِمُ الَّذِي قَدَّمَ إِلَهُنَّ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] يعني به خرج عن طاعته واتباع أمره. قال أبو جعفر: وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت الرُّطْبَةُ إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُمِّيتِ الفأرةُ فُؤَيْسِقَةً؛ لخروجها عن جحرها، فكذلك المنافق والكافر سُمِّيَا فَاسِقَيْنِ، لخروجهما عن طاعة ربهما. وقال رؤبة<sup>(٢)</sup>:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرًا فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

(١) مفاتيح الغيب: ٦٣/١١.

(٢) انظر: جامع البيان: ٤٠٩/١، ومفاتيح الغيب: ١١٦/٢١.

- تسمية النساء «بيضات الخدور»:

من عادات العرب القولية: تسمية النساء بالبيض، ويقولون لهن: بِيضَاتِ الخدور، تشبيهاً ببيض النعام الممكنون في الصفاء، وقد نطق القرآن الكريم بذلك وصفاً لنساء عباد الله المخلصين في الجنة، فقال تعالى: ﴿كَانَ لَهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ [الصفات: ٤٩] أي: كأن نساء أهل الجنة بِيضٌ مَّصُونٌ لم تمسه الأيدي، فالممكنون من كنت الشيء إذا سترته عن أيدي العابثين.

ومعنى هذا التشبيه: أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة، فإذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة، فكان هذا اللون في غاية الحسن، والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور، من ذلك قول امرئ القيس<sup>(١)</sup>:

وَبِيضَةِ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَّتَعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ  
- تسمية البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً:

من عادات العرب القولية: تسمية البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً، وقد جاء القرآن الكريم بهذا، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] المعنى: تمجد وتعظم الذي جعل في السماء نجوماً تسير في منازلها بحكمة فائقة، وجعل فيها شمساً تضيء وقمرأ ينير الظلمات، والعرب تُسَمِّي البناء المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببروج السماء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أي: حصون قوية<sup>(٢)</sup>.

(١) ديوان امرئ القيس: ١٣، وانظر مفاتيح الغيب: ٢٦/١٢٠، وروح المعاني: ١٧/١١٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٤/٢١٧.

### - السَّجْرُ: الْمَلْءُ:

من عادات العرب القولية: تفسير السَّجْرُ بالملء، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] معناها: ملئت ماءً، والعرب تقول: سَجَّرْتُ الحوض أسجره سجرًا، إذا ملأته وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملاان، وروى الربيع بن خثيم: سُجِّرَتْ: فاضت ومُلِئَتْ، وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك. قال ابن أبي زَمَنِين: سُجِّرَتْ: حقيقته مُلِئَتْ، فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئاً واحداً، وهو معنى قول الحسن.

وقيل: أرسل عذبتها على مالحها ومالحها على عذبتها، حتى امتلأت.

عن الضحاك ومجاهد: أي فجرت فصارت بحراً واحداً... وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانُ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمت الأرض كلها، وصارت البحار بحراً واحداً. وقيل: صارت بحراً واحداً من الحميم لأهل النار<sup>(١)</sup>.

### - تسمية العرب للشيء باسمه المتقدم وإن كان قد تجاوزه:

من عادات العرب القولية: تسميتهم للشيء باسمه المتقدم زماناً، وإن كان قد تجاوز مرحلة هذا الاسم، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤] أي: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، الواحدة عُشْرَاءُ، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع أيضاً، ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم، وإن كان قد جاوز ذلك، يقول الرجل لفرسه وقد قرح: هاتوا مُهْرِي وقرَّبوا مهري، يسميه بمتقدم اسمه، قال

(١) القرطبي: ٢٣٠/١٩، روح المعاني ٤٠/٣، وفتح القدير: ٢٢٧/٧.

عنترة مخاطباً امرأته، وكانت لا تزال تذكر خيله وتلومه في فرسٍ كان يُؤثره على سائر خيله، ويسقيه اللبن:

لا تَذْكَرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتَهُ فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرِبِ<sup>(١)</sup>  
وإنما خصَّ العشار بالذِّكْرِ، لأنها أعزُّ ما تكون على العرب، وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة، وهذا على وجه المثل، لأنه في القيامة لا تكون ناقة عُشراء، ولكن أراد به المثل، أن هول القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشراء لعطلها واشتغل بنفسه<sup>(٢)</sup>.

### – مخاطبة الرجل وإرادة غيره:

من عادات العرب القولية: مخاطبتهم للرجل وإرادتهم غيره، وعلى ذلك ورد قوله تعالى خطاباً لرسولنا ﷺ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، المعنى فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَعْنِي: القرآن، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، فيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة، قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَأَتَّبِعْ مَا يوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١، ٢] خاطب النبي ﷺ والمراد به المؤمنون، بدليل أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولم يقل: «بما تعمل» وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١] قال الفراء تعليقاً على آية يونس المتقدمة: «عَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

(١) ديوان عنترة: ٤٢.

(٢) القرطبي: ١٩/٢٢٨، واللباب: ١٦/٢٣٩.

وتعالى أن رسوله غيرُ شكٍّ، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد منهم لعبده: **إِنْ كُنْتَ عَبْدِي فَأَطعني، ويقول لولده: افعَل كذا وكذا إِنْ كُنْتَ ابْنِي، ولا يكون بذلك على وجه الشك**»<sup>(١)</sup>.

### - لا وَزَرَ ولا نَفَقَ أَي: لا مَفَرَّ ولا مَهْرَبَ:

من عادات العرب القولية: قولهم: لا وَزَرَ لك مني ولا نَفَقَ، يعنون لا مهرب ولا مأوى للجاني، وقد جاء شبيه ذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [هود: ٢٠] حيث إنه لسائل أن يسأل: لماذا قيد هنا عدم الإعجاز بكونه في الأرض فحسب، كما قيده أيضاً في آيتي النور [٥٧] والشورى [٣١]، ومعلوم أنه لا معجز لله في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]؟ قلت: لأن هذه الآية ومثيلاتها جاءت على عادة العرب كما نقل ابن الجوزي إذ قال: «لما كانت عادة العرب جارية بقولهم: لا وَزَرَ لك مني ولا نَفَقَ، يعنون بالوَزَرَ: الجبل، والنفق: السَّرَبَ، وكلاهما يلجأ إليه الخائف، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستر من الأرض ويلجأ إليه»<sup>(٢)</sup>.

### - «كيف بك إذا كان كذا» تقال فيما يتوقع حصوله:

من عادات العرب القولية: قولهم في الشيء الذي يتوقعونه: «كيف بك إذا كان كذا وكذا»، و«إذا فعل فلان كذا»، و«إذا جاء وقت كذا»، ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا أيضاً: «كيف أنت إذا كان كذا وكذا»؟

(١) البغوي: ٤/ ١٥٠.

(٢) زاد المسير: ٣/ ٣٣٢.

ومن هنا حمل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] على هذه العادة العربية والسنة القولية، إذ إنه سيأتي يوم القيامة الرسل ليشهدوا على أممهم بما عملوا وسيأتي نبينا ﷺ ليكون شهيداً على أمته أنه بلغهم رسالة ربّه سبحانه. ومثل ما سبق قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ لَكَمْ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوَفَّقًا﴾ [النساء: ٦٢]. وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

قال الفخر الرازي: «من عادة العرب أنهم يقولون في الشيء الذي يتوقعونه: كيف بك إذا كان كذا وكذا، وإذا فعل فلان كذا، وإذا جاء وقت كذا؟ ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا أيضاً: كيف أنت إذا كان كذا وكذا»<sup>(١)</sup>؟

### – صدور التعجب من الله تعالى راجع إلى الخلق:

من عادات العرب القولية: إيرادهم التعجب في مخاطباتهم، وعلى ذلك حُمِلَ صدور التعجب من الله تعالى، مع رجوعه إلى الخلق كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ رَبُّنَا اللَّهُ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنْزَلَ يَوْمَ كُونٍ﴾ [التوبة: ٣٠] على عادة العرب في الخطاب فحسب، والتعجب هو: ﴿قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنْزَلَ يَوْمَ كُونٍ﴾ ومعناه كما قال الرازي: كيف يصدون - والخطاب للمشركين - ويصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل، حتى يجعلوا لله ولداً! وهذا التعجب إنما هو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم، والله تعالى عَجَبَ نبيه مِنْ تَرَكُّبِهِمُ الْحَقَّ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ<sup>(٢)</sup>.

(١) الفخر: ٢١٠/٥، ٢٦٢، وانظر: النيسابوري: ١٩/٣، البيضاوي: ١٩/٣، اللباب: ٥/٢٢٣.

(٢) الفخر: ٢/٨، وانظر: النيسابوري: ٣/٢٥٥، واللباب: ٨/٢٦٣.

## المبحث الثالث

## عادات العرب القولية في ضوء آيات العبادات

في المبحث السابق ذكرنا أمثلة من عادات العرب القولية أتت في ضوء بعض آي القرآن المتحدثة عن العقيدة، وفي هذا المبحث نورد نماذج لبعض هذه العادات لكن في ضوء آيات عُيِّنَتْ بالعبادة، من ذلك:

## - الثناء قبل سؤال الحاجة:

من عادات العرب القولية: تقديمهم الثناء قبل سؤال الحاجة، وقد جاء في ضوء ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] إذ قَدَّمَ الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيداً لإجابة استغفاره ﷺ على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة، كما قال ابن أبي الصَّلْت:

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَّاهُ عَنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءِ  
فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَخْلُو عَنْ تَسْبِيحِ اللَّهِ، فَأَرِيدُ تَسْبِيحَ يَقَارِنُ الْحَمْدَ  
عَلَى مَا أُعْطِيَهِ مِنَ النُّصْرِ وَالْفَتْحِ وَدُخُولِ الْأُمَّةِ فِي الْإِسْلَامِ<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ \* وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسْتَ سَجِيْبُوا لِي وَلِيَوْمِ مَوْءَايِ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ \* [البقرة: ١٨٥، ١٨٦]. قال الفخر: «إنه تعالى أمر بالتكبير أولاً ثم رَغَّبَ في الدعاء ثانياً، تنبيهاً على أن الدعاء لا بد أن يكون مسبوقة بالثناء الجميل، ألا ترى أن الخليل عليه السلام لَمَّا أَرَادَ الدعاء قدم عليه الثناء، فقال

(١) التحرير والتنوير: ٣٤٠ / ٧.



أولاً: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وكل هذا ثناء منه على الله تعالى، ثم شرع بعده في الدعاء فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، فكذا هاهنا أمر بالتكبير أولاً ثم شرع بعده في الدعاء ثانياً<sup>(١)</sup>.

### - قد يكون القيد لمجرد بيان الواقع فحسب:

من عادات العرب القولية: الإتيان بقيد لمجرد بيان الواقع فحسب، ومن ذلك: القيد الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] التقييد في الآية بالجهالة قيل: لبيان الواقع؛ لأن كل من يعمل السوء لا يعمله إلا بجهالة.

فليس المعنى أنه تعالى يغفر لمن يعمل السوء بجهالة، ولا يغفر لمن عمله بغير جهالة، بل المراد أن جميع من تاب هذه سبيله، وإنما خصَّ من يعمل السوء بجهالة؛ لأن أكثر من يأتي الذنوب يأتيها بقلّة فكر في عاقبة الأمر أو عند غلبة الشهوة أو في جهالة الشباب، فذكر الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك، وعلى القولين لا مفهوم للقيد<sup>(٢)</sup>.

### - قول العرب: «أما علمت» يفيد الإفهام وإزالة الشك:

من عادات العرب القولية: قولهم لمن يريدون إفهامه وإزالة الشك عنه: «أما علمت» وعلى ذلك حُملَ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ في الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم [التوبة: ١٠٤]، والآية في المتخلفين عن الجهاد. قال أبو مسلم: قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ وإن كان بصيغة

(١) مفاتيح الغيب: ٨١/٥.

(٢) الألووسي: ١٠/٣٣١، وانظر: البحر: ٧/٣٠٣.

الاستفهام، إلا أن المقصود منه التقرير في النفس، ومن عادة العرب في إفهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن يقولوا: أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره؟ فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم، ثم زاده تأكيداً بقوله: ﴿هُوَ النَّوَابُ الرَّجِيمُ﴾<sup>(١)</sup>.

### - التعبير بالجزء عن الكل والعكس:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] عبر سبحانه وتعالى بـ «الصلوة» هنا وأراد القراءة، كما عبر بالقراءة وأراد الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَاتَمْشُهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر، ولأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود، فهي من جملة أجزائها، فعبر بالجزء عن الجملة وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في مثل ذلك، وهو في القرآن كثير، ومنه الحديث الصحيح: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»<sup>(٢)</sup>، أي: قراءة الفاتحة<sup>(٣)</sup>.

### - تسمية ضوء الصبح خيطاً:

من عادات العرب القولية: تسمية ضوء الصبح خيطاً، وتسمية ظلام الليل المختلط به خيطاً، وقد جاء القرآن موافقاً لهذه العادة القولية فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والمعنى: كلوا معشر المسلمين في ليل رمضان واشربوا حتى يتبين لكم ضياء الصباح من سواد الليل، بظهور الفجر الصادق، والعرب تسمي ضوء الصبح خيطاً

(١) الفخر: ١٤٢/٨، اللباب: ٣٦١/٨.

(٢) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: القُرْءَانِ حَلْفَ الْإِمَامِ فِيمَا لَا يُجْهَرُ فِيهِ بِالْقُرْءَانِ ١/٢٥٣، برقم: ١٧٤.

(٣) القرطبي: ٣٤٤/١٠.

وظلام الليل المختلط به خيطاً، ومنه قول أبي دُوَادٍ الإيادي<sup>(١)</sup>:

فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سُدْفَةٌ      ولاح من الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا  
وقول أُمَيَّةَ بن أَبِي الصَّلْتِ<sup>(٢)</sup>:

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ضَوْءُ الصُّبْحِ مُنْقَلِقٌ      وَالْخَيْطُ الْأَسْوَدُ لَوْنُ اللَّيْلِ مَرْكُومٌ

### - إطلاق الحال وإرادة المحل:

من عادات العرب: تسمية الحدث باسم المحل الذي يقع فيه، ومن ذلك ما جاء به قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

فكلمة الغائط في قوله سبحانه: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أصلها: «ما انخفض من الأرض، والجمع الغيطان، أو الأغواط، وبه سُمِّيَ غُوطَةٌ دمشق، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تستراً عن أعين الناس، ثم سُمِّيَ الحدثُ الخارج من الإنسان غائطاً للمقارنة، وغاط في الأرض يغوط: إذا غاب»<sup>(٣)</sup>، وعلى هذا المعنى نزل القرآن الكريم.

### - استعمال الثياب بمعنى الجسم، والأهل، والوفاء بالعهد:

من عادات العرب القولية: استعمال الثياب كناية عن الجسم، والأهل، والوفاء بالعهد، وطهارة القلب، وهي أقوال للعلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشِيَابَكَ فُطِّرَ﴾ [المدثر: ٤] استناداً إلى عادات العرب القولية.

(١) انظر: لسان العرب: ٧/٢٩٨، وتاج العروس: ١٠/٢٥٢. (خيط).

(٢) انظر: اللسان (خيط)، ٧/٢٩٨، وأضواء البيان: ١/٧٤.

(٣) القرطبي: ٥/٢٢٠، وانظر: البغوي: ٢/٢٢٢، والخبازن: ٢/٩٨. فتح القدير: ١/٤٧٠.

فمن العلماء من فسّر الثياب في الآية بالجسم، فقال: وجسمك فطهر، يعني عن المعاصي الظاهرة، ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلي الأخيلية<sup>(١)</sup>:

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلَنْ تَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمَنْفَرَا  
أي: ركبوا الإبل فرموها بأنفسهم.

ومن العلماء من فسّر الثياب في الآية بالأهل، فقالوا: وأهلك فطهّرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب؛ لأن العرب تسمي الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أو: ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف، أو بالاستمتاع بهن في القبل دون الدبر، في الطهر لا في الحيض، حكاه ابن بحر.

ومن العلماء من فسّر الثياب بالعهد، فقال: وبعهدك وفّ؛ لأن العرب كانت تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب، وقد شملت الآية جميع ذلك مع طهارة القلب بالتوبة، كما قال مقاتل، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس<sup>(٢)</sup>:

أَفَاطِمٌ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرْمَعْتَ هَجْرِي فَأَجْمَلِي  
وإن تك قد ساءتِكِ مني خليقةٌ فسُلي ثيابي من ثيابك تُنسلِ

- إيقاع الوقت الطويل على الوقت القصير:

كما أن من عادة العرب إيقاع الجمع على الثنية، فإن من عاداتهم أيضاً إيقاع الوقت الطويل على الوقت القصير، نلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَبْجُ أَشْهُرٌ

(١) اللسان: (ثوب)، ٢٤٣/١.

(٢) ديوان امرئ القيس: ١٢، ١٣.

مَعْلُومَتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِتَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعَلَّمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿البقرة: ١٩٧﴾ حيث قال سبحانه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ وهي شهران وبعض الآخر، على عادة العرب. «تقول العرب: له اليوم يومان لم أره، وإنما هو يوم، وبعض آخر. وتقول: زرتك العام، وأتيتك اليوم، وإنما وقع الفعل في ساعة. وفي هذا قولان:

أحدهما: أن العرب توقع الجمع على التثنية، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وإنما يريد عائشة وصفوان رضي الله عنهما. وكذلك قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يريد: داود وسليمان عليهما السلام.

والثاني: أن العرب توقع الوقت الطويل على الوقت القصير، فيقولون: قُتِلَ ابْنُ الزبير أيام الحج، وإنما كان القتل في أقصر وقت<sup>(١)</sup>.

### - اللمس: الجماع:

من عادات العرب القولية: استعمالهم اللمس بمعنى الجماع، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوَجَلَةٌ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْلَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

حيث اختلف سعيد بن جبير مع عطاء وعبيد بن عمير في قوله تعالى: ﴿أَوْلَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقال عبيد بن عمير: هو الجماع، وقال سعيد وعطاء: هو اللمس، ثم دخلوا على ابن عباس فسأله فقال: غلب فريق الموالى وأصابت العرب، هو الجماع، ولكن الله يَعِفُّ وَيَكْنِي. وقيل: إنه قال: أخطأ المولى وأصاب العربي، الملامسة: النكاح، ولكن الله يَكْنِي وَيَعِفُّ<sup>(٢)</sup>.

(١) زاد المسير: ١/١٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان: ٥/١٠٢، معالم التنزيل: ١/١١٩.

## - تسميتهم المفعول باسم المصدر:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] الآية تثبت الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، القرآن الذي هو اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب يسمى شرباً، والمكتوب يسمى كتاباً، وعلى هذا قيل: هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرناً بمعنى، قال حسان بن ثابت<sup>(١)</sup>:

ضَحَّوْا بِأَسْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا

أي: قراءة، وفي التنزيل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]

أي: قراءة الفجر، ويسمى المقروء قرناً على عادة العرب في تسميتها المفعول باسم المصدر، كتسميتهم للمعلوم علماً، وللمضروب ضرباً، وللمشروب شرباً، كما ذكرنا، ثم اشتهر الاستعمال في هذا، واقترن به العرف الشرعي، فصار القرآن اسماً لكلام الله، حتى إذا قيل: القرآن غير مخلوق، يراد به المقروء لا القراءة لذلك<sup>(٢)</sup>.

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢١٦.

(٢) القرطبي: ٢/٢٩٨.

## المبحث الرابع

### عادات العرب القولية في ضوء آيات المعاملات

في المبحث السابق ذكرنا أمثلة من عادات العرب القولية أتت في ضوء بعض آي القرآن المتحدثة عن العبادات، وفي هذا المبحث نورد نماذج لبعض هذه العادات لكن في ضوء آيات عنيت بالمعاملات من ذلك:

- استعمال «أصلح الله فلاناً» ونحوه في مخاطبة كبار القوم فحسب:  
من عادات العرب القولية: قولهم: أصلح الله الأمير، وعفا الله عنك... خطاباً لعلية القوم وسادتهم، ومن هنا حمل قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَنَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] وهو خطاب للنبي ﷺ في شأن إذنه للمنافقين في القعود عن الجهاد، حتى يظهر له الذين صدقوا في اعتذارهم ويعلم الكاذبين منهم في ذلك؟ إذ بهذا ترك الأولى والأكمل، ومن هنا كان لذيذ العتاب للمصطفى ﷺ، وهذا كما كانت عادة العرب في مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا: «أصلح الله الأمير والملك»، و«عفا الله عنك ما صنعت في أمري»، «رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي»، و«عافاك الله ألا عرفت حقي» وبعد حصول العفو من الله تعالى يستحيل أن يكون قوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ وارداً على سبيل الذم والإنكار بل يحمل على ترك الأكمل والأولى، ولا سيما هذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا<sup>(١)</sup>.

- تأخير ما حقه التقديم والعكس:

من عادات العرب القولية: تأخير ما حقه التقديم، وتقديم ما حقه التأخير؛ لنكتة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَلَمَّا فَازَ بَارِئًا أَمْ تَمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]،

(١) نظم الدرر: ٣/٤٥٨، النيسابوري: ٤/١٥٤.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَاتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ مؤخرة في التلاوة، مقدمة في المعنى؛ لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَآتِيحٌ أَنْ تَدْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا﴾ [الكهف: ١، ٢] أراد: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، فأخر المقدم، وقدم المؤخر، لأنه من عادة العرب.

قال رباح بن سبيح يمدح الفرزدق ويهجو جريراً:

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ صَخْرَةٌ عَادِيَّةٌ طَالَتْ، فَلَيْسَ تَنَالُهَا الْأَوْعَالُ<sup>(١)</sup>  
أراد: طالت الأوعال<sup>(٢)</sup>.

وآية البقرة السابقة مثال آخر لعادة قولية أخرى هي إسناد الفعل للكُلِّ والمراد واحد، إذ أسند في الآية القتل إلى الكل، والقاتل واحد؛ «لأن ذلك من عادة العرب، ولأن عادة القبيلة المدافعة عن أحدهم فقال: ﴿قَاتَلْتُمْ﴾ فأقبل عليهم بالخطاب توبيخاً لهم وإشارة إلى أن الموجودين منهم راضون بما مضى من أسلافهم، وأن من ودَّ شيئاً كان من عمله»<sup>(٣)</sup>.

(١) الحماسة البصرية: ٥٧٤/١، قال ابن منظور: هو قول لسبيح بن رباح الرُّنجي، ويقال: رباح بن سبيح

حين غَضِبَ لما قال جريراً في الفرزدق:

لَا تَطْلُبَنَّ حُؤُولَةَ فِي تَغْلِبِ فَالزُّنْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالَا

فقال سبيح أو رباح لما سمع هذا البيت:

الزُّنْجُ لَوْ لَأَقْبَيْتَهُمْ فِي صَفِّهِمْ لَأَقْبَيْتَ نَمَّ جَحَا جِحَا أَبْطَالَا

مَا بَالُ كَلْبِ بَنِي كَلَيْبِ سَبْنَا أَنْ لَمْ يُوَازِنْ حَاجِبًا وَعَقَالَا؟

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ صَخْرَةٌ عَادِيَّةٌ طَالَتْ فَلَيْسَ تَنَالُهَا الْأَوْعَالَا

انظر: اللسان: طول ٤١٠/١١.

(٢) زاد المسير: ٨٣/١، وروح المعاني: ١١٥/٦.

(٣) نظم الدرر: ١٢٦/١.



## - ذكر الأم في النداء استعطافاً:

من عادات العرب القولية: ذكرهم للأم على سبيل الاستعطاف بالرحم، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرِي كُمْ وَاللَّيْلِ الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ومحل الشاهد: ﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ...﴾ حيث إن المرء يُنسب إلى أبيه، قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] وعند النداء ينادى باسمه مشفوعاً باسم أبيه لا أمه، ولكن الأمر هنا قد اختلف، فقد نادى نبي الله هارون أخاه موسى عليهما السلام وكان شقيقه بغير المؤتلف من النداء بين الناس فقال له: «يا بن أم» وذلك لنكتة هي طلب الاستعطاف والترفق والتلطف به، وهي عادة العرب حيث تتلطف وتتحنن بذكر الأم استعطافاً بالرحم، كما قال أبو زيد الطائي:

يا بن أمي ويا شقيق نفسي أنت خلّيتني لأمرٍ شديد<sup>(١)</sup>  
وقال آخر:

يا بن أمي فدتك نفسي ومالي<sup>(٢)</sup> .....

## - اشتقاق اسم للمخاطب من صفته تأنيساً له وملاطفة:

من عادات العرب القولية: اشتقاقهم اسماً للمخاطب من صفته التي هو عليها، على سبيل التأنيس له والملاطفة معه، وذلك كائن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ﴾ [المزمل: ١] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] فلم يقل: يا محمد أو يا أحمد، بل ناداه سبحانه بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وذلك من باب المؤانسة والملاطفة

(١) الكتاب: ٢١٣/١٢، واللسان ١٨١/١٠ (شقق).

(٢) النكت والعيون: ١٩/٢، البحر: ٤٥٧/٣.

سيراً على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها كقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه حين غاضب فاطمة رضي الله تعالى عنها، فأتاه وهو نائم، وقد لصق بجنبه التراب: «قم أبا تراب»<sup>(١)</sup> «قصداً لرفع الحجاب وطَيِّ بساط العتاب، وتنشيطاً له ليتلقى ما يرد عليه بلا كسل:

وكلُّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبٌ .....»<sup>(٢)</sup>

### - ذكر الصباح غير مراد وقته المعروف:

من عادات العرب القولية: ذكر الصباح غير مراد وقته المعروف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، فالصباح في قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ غير مراد به وقت الصبح المعروف، بل أريد به كل الأوقات، واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ على أن القتل وقع ليلاً وليس بشيء، فإن من عادة العرب أن يقولوا: أصبح فلان خاسر الصفقة إذا فعل أمراً ثمرته الخسران، ويعنون بذلك حصول الخسران، مع قطع النظر عن وقت دون وقت، وهو كقول مسكين بن علي الحنظلي وقد وصف صحابة من عواذله طويلة الخصام:

أَصْبَحْتُ عَاذِلْتِي مُعْتَلَةً قَرِمْتُ بِلْ هِي وَحُمِي لِلصَّخَبِ<sup>(٣)</sup>

(١) نص الحديث: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، فَقَالَ: هَذَا فُلَانٌ لِأَمِيرِ الْمَدِينَةِ يَدْعُو عَلِيًّا عِنْدَ الْمَنْبَرِ قَالَ: فَيَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: يَقُولُ لَهُ: أَبُو تُرَابٍ، فَضَحِكَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا سَمَّاهُ إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ، وَمَا كَانَ لَهُ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ فَاسْتَطَعَمْتُ الْحَدِيثَ سَهْلًا وَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: دَخَلَ عَلِيٌّ عَلَى فَاطِمَةَ، ثُمَّ خَرَجَ فَاضْطَجَعَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّكَ؟ قَالَتْ: فِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَوَجَدَ رِدَاءَهُ قَدْ سَقَطَ عَنْ ظَهْرِهِ وَخَلَصَ التُّرَابُ إِلَى ظَهْرِهِ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ ظَهْرِهِ فَيَقُولُ: اجْلِسْ يَا أَبَا تُرَابٍ مَرَّتَيْنِ»، رواه البخاري: كتاب: المناقب باب: مناقب علي بن أبي طالب، برقم: ٣٤٢٧.

(٢) الألويسي: ٣٦٩ / ٢١.

(٣) أمالي القاضي: ١ / ١٧٣. وانظر: روح المعاني: ٦ / ١١٥. وقرمت: اشتدت شهوتها للشيء. والوخمى: مِنْ وَحَمَتِ الْجُبَلِي: اشتتت شيئاً على حبلها.

### - تَكَرُّرُ الشَّيْءِ بِلَفْظٍ آخَرَ:

من عادة العرب القولية أنهم إذا كرروا شيئاً كرروه بلفظ آخر، وقد نطق القرآن بذلك من خلال قوله تعالى على لسان طالوت في تحذيره جنوده: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] يقال: طعمت الشيء أي: ذقته وأطعمته الماء أي: أذقته، ولم يقل: ومن لم يشربه؟ لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئاً أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات، فلا عبرة بقدرح من يقول: لا يقال: طعمت الماء<sup>(١)</sup>.

### - قَصْرُهُمُ النَّفْيَ بِـ «لَيْسَ» عَلَى بَعْضِ وُجُوهِهِ:

من عادات العرب القولية: قصرهم النفي بليس على بعض الوجوه، وهذا ما فُسِّرَ به النفي بليس في قول طالوت لجنوده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] ومعنى فليس مني أي: ليس من أصحابي في هذه الحرب، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان، وفي الحديث: «مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»<sup>(٢)</sup>، أي: ليس من أصحابنا، ولا على طريقتنا وهدينا، قال: النابغة الذبياني:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي<sup>(٣)</sup>  
وهذا مهيع في كلام العرب، يقول الرجل لابنه إذا سَلَكَ غيرَ أسلوبه:  
«لست مني»<sup>(٤)</sup>.

(١) القرطبي: ٢٥٢/٣، وفتح القدير: ٢٦٥/١.

(٢) مسلم كتاب: الإيمان، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ٢٦٥/١، برقم: ١٤٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني: ١٢٧.

(٤) القرطبي: ٢٥٢/٣، وفتح القدير: ٢٦٥/١.

### - تأكيد إلزام الشيء بتصويره في العنق:

من العادات العربية القولية: تأكيدهم إلزام الشيء بتصويره في العنق، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

أي: أن البخلاء بما في أيديهم سيطوقون بما بخلوا به أي: سيكون طوقاً من نار يوضع في أعناقهم يوم القيامة، أو «سيلزمون إثمهم في الآخرة، يقال: فلان كالطوق في رقبة فلان، والعرب يعبرون عن تأكيد إلزام الشيء بتصويره في العنق، ومنه يقال: قلدتك هذا الأمر وجعلت هذا الأمر في عنقك»، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيقَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] (١) وعلى ذلك يحمل كل نظير في القرآن.

### - استعمال العرب أكل لحم الأدمي مكان الغيبة:

من عادات العرب القولية: استعمالهم أكل لحم الميت يريدون بذلك الغيبة، وقد جاء قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُخْبِرُوا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يُجَنَّبُ سَأُ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] على وفق هذه العادة، حيث مثل الله تعالى الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه.

قال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس.

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية.

(١) مفاتيح الغيب: ٩٣/٩.

قال المُقَنَّعُ الكِنْدِيُّ من أبيات الحماسة<sup>(١)</sup>:

فإن يأكلوا لحمي وَفَرْتُ لِحْمِهِمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا  
وإن ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ وَإِنْ هَمُّهُمُ هَوُوا غَيْبِي هَوَيْتُ لَهُمْ رَشْدًا  
ومن هذا القبيل أيضاً قول الشاعر سُؤَيْدِ بْنِ أَبِي كَاهِلٍ الْيَشْكُرِيِّ<sup>(٢)</sup>:

وِيَحْيِيَّ نِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَّعُ  
فمن تَنَقَّصَ مسلماً أو تَلَمَّ عَرَضَهُ فهو كالآكل لحمه حياً، ومن اغتابه فهو  
كالآكل لحمه ميتاً.

- استعمال العَوْلُ بمعنى الجور:

من عادات العرب القولية: استعمال عال بمعنى جار ومال عن القصد، وقد  
جاء القرآن بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَلْتِي فَاذْكُوا مَاتَاباً لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ  
مَثْنَى وَذُلَّتْ وَرُبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

ألا تعولوا أي: ألا تجوروا في الحقوق الشرعية، والعرب تقول: عال يعول إذا  
جار ومال وهو عائل، ومنه قول أبي طالب<sup>(٣)</sup>:

بمِيزَانِ صِدْقٍ لَا يُغْلُ شَعِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ  
أي: غير مائل ولا جائر، ومنه قول الآخر<sup>(٤)</sup>:

قالوا اتَّبَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ وَاطَّرَحُوا قَوْلَ الرَّسُولِ وَعَالُوا فِي الْمَوَازِينِ  
أي: جاروا<sup>(٥)</sup>.

(١) الحماسة بشرح المرزوقي ١١٧٩/٣.

(٢) اللسان: رتع، ١١٢/٨، وانظر: المحرر الوجيز: ١٥٢/٥، القرطبي: ٣٣٥/١٦.

(٣) تهذيب اللغة: عيل، ١٩٦/٣، واللسان: عيل، ٤٨٨/١١.

(٤) الصحاح: ١٧٧٧/٥، واللسان: ٤٨١/١١. [عول].

(٥) أضواء البيان: ٣١٧/١.

## - نداء غير المنادى في الحقيقة:

من العادات العربية القولية: التعبير عن الأمور العظيمة بندااء غير المنادى في الحقيقة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَأَنَّهُمْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فهل الحسرة تُنادى؟

معنى دعاء الحسرة تنبيه للناس على ما سيحصل لهم من الحسرة، والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة، قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَى مَا فَطَرْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وهذا أبلغ من أن يقال: الحسرة علينا في تفريطنا، ومثله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يَاسْفٍ وَأَبْصَرْت عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] تأويله: يا أيها الناس تنبهوا على ما وقع بي من الأسف، فوقع النداء على غير المنادى في الحقيقة، فإذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: يا عجبُ احضِرْ وتعال؛ فإن هذا زمانك<sup>(١)</sup>.

## - أحيط بفلان إذا قرب هلاكه:

من العادات العربية القولية: قول العرب لمن قرب هلاكه «أحيط بفلان» جاء ذلك في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام في شأن ابنه يوسف: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ وَمَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَبِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

معنى ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَبِكُمْ﴾ الهلاك، أي: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي، والعرب تقول: أحيط بفلان إذا قرب هلاكه، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ [الكهف: ٤٢] أي: أصابه ما أهلكه، وقال تعالى: ﴿وَوَظَّوْا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]،

(١) مفاتيح الغيب: ١٨/١٣٧.

وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه، فقبل لكل من هلك: قد أحيط به<sup>(١)</sup>.

- حَمَلَ معاني الأفعال على أفعال أخرى لما بينهما من الارتباط والاتصال:

من عادات العرب القولية: حمل معاني الأفعال على أفعال أخرى لما بينهما من الارتباط والاتصال، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرُصُّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦] معنى الآية: «لِلَّذِينَ يَعْتَرِلُونَ مِن نِّسَائِهِم بِالْأَلْيَةِ، فَكَانَ مِنْ عَظِيمِ الْفِصَاحَةِ أَنْ اخْتَصَرَ، وَحُمِّلَ أَلَى مَعْنَى اعْتَزَلَ النِّسَاءُ بِالْأَلْيَةِ حَتَّى سَاغَ لُغَةً أَنْ يَتَّصِلَ أَلَى بِقَوْلِكَ مِنْ، وَنَظْمُهُ فِي الْإِطْلَاقِ أَنْ يَتَّصِلَ بِأَلَى قَوْلِكَ عَلَى، تَقُولُ الْعَرَبُ: اعْتَزَلْتُ مِنْ كَذَا وَعَنْ كَذَا، وَالْأَيْتُ وَحَلَفْتُ عَلَى كَذَا، وَكَذَلِكَ عَادَةُ الْعَرَبِ أَنْ تَحْمِلَ مَعَانِيَ الْأَفْعَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْاِرْتِبَاطِ وَالِاتِّصَالِ»<sup>(٢)</sup>.

- الخيل: الخير:

من عادات العرب القولية: تسميتهم الخيل بالخير، وقد جاء القرآن الكريم بذلك فقال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجِيَادُ \* فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣١، ٣٢] ووردت هاتان الآيتان على لسان نبي الله سليمان عليه السلام حين عُرِضَتْ عليه الخيول الأصيلة السريعة، التي لازالت تُعْرَضُ عليه حتى غابت الشمس، فقال: «إني آثرتُ حبَّ الخيل عن ذكر ربي حتى غابت الشمس وتوارت.

من الأقوال التي حكاها العلماء في معنى الخير هنا: الخيل. قال ابن عطية:

«لأن العرب تُسَمِّي الخيل الخير»<sup>(٣)</sup>.

(١) مفاتيح الغيب: ٧٤/٩، واللباب: ٤١١/٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٢٤٣/١.

(٣) المحرر الوجيز ٤٠٧/٥.

### - البخل: الفحشاء:

من عادات العرب القولية تسميتهم البخل فحشاً، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: الشيطان يخوفكم الفقر، ويغريكم بالبخل، الذي هو الخصلة الفحشاء، وذلك بحثه إياكم على ترك الصدقات، والعرب تسمي البخيل: فاحشاً، قال طرفة بن العبد:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ<sup>(١)</sup>  
وقيل: بالفحش أي: بالمعاصي والسيئات<sup>(٢)</sup>.

### - إطلاق الأب على العم:

من عادات العرب القولية: إطلاقهم الأب على العم، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: ذرية إبراهيم، وقيل: من ذرية نوح، واعتراض بأنه عدّ من هذه الذرية يونس ولوطاً، وما كانا من ذرية إبراهيم وكان لوط ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، قال القرطبي: «هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم من لم تلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم؛ لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم، والعرب تجعل العمَّ أباً، كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، مع أن إسماعيل عم يعقوب،

(١) ديوان طرفة: ٥٣.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٢٦٢، وروح المعاني: ٨٠/ ٣.



كما تسمي الخالة أمًّا<sup>(١)</sup>. وقال النبي ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»<sup>(٢)</sup>. وقال في عمه العباس: «ردوا عليَّ أبي، فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود، وذلك أنهم قتلوه»<sup>(٣)</sup>.

– الإخبار عن الاسمين المستويين في الحكم مع الإضافة إلى أحدهما أو إليهما جميعاً:

من عادة العرب القولية أنهم إذا ذكروا اسمين ثم أخبروا عنهما وكانا في الحكم سواء ربما أضافوا إلى أحدهما، وربما أضافوا إليهما جميعاً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَوَلَّهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

أراد بالأخ والأخت في الآية الأخ والأخت من الأم بالاتفاق، وأعاد الضمير مفرداً في قوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ﴾ ولم يقل: لهما؟ وقد مضى ذكر الرجل والمرأة على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما وكانا في الحكم سواء ربما أضافت إلى أحدهما، وربما أضافت إليهما جميعاً، تقول: من كان عنده غلام وجارية فليحسن إليه وإليها وإليهما وإليهم، قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقد يذكرونه مثني، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلِلَّهِ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥]<sup>(٤)</sup>.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣١ / ٧ ونسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مسلم: كتاب: الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها برقم: ١٦٣٤ / ٥ / ١٢٤.

(٣) الكشاف: ٥٦٦ / ٣، وانظر: معالم التنزيل: ٣ / ٣٩، وتفسير القرآن العظيم: ١ / ١٨٧، وإرشاد العقل السليم: ٣ / ١٣٨، وروح المعاني: ٧ / ٢١٢.

(٤) البغوي: ٢ / ١٨٠، والقرطبي: ٥ / ٧٨، وفتح القدير: ٢ / ٩٧.

- خطاب السيد ومقصودهم قومه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] في الآية الكريمة ضَرَبَ اللهُ تعالى بسط اليد مثلاً لذهاب المال، لأنَّ قَبْضَ الكفِّ يحبس ما فيها، وبَسْطُهَا يذهب ما فيها، وهذا كله خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن مثل ذلك، فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك<sup>(١)</sup>.

هذه بعض عادات العرب القولية، جَمَعْتُهَا من بين ثنايا كتب التفسير محللاً إياها مستأنساً بكتب اللغة والأدب، لعلها تضيف لينة في بناء مكتبة الدراسات القرآنية، وتحفز همم الدارسين لاستخراج مزيد من عادات العرب القولية، إذ إن كل عادة ترفع وهماً، وتثبت يقيناً على طريق فهم كتاب الله عز وجل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

(١) القرطبي: ١٠/٢٥٠، والثعالبي: ٣٧٦/٢.

## الخاتمة

من خلال تناولي لموضوع «عادات لغوية في ضوء القرآن الكريم» أستطيع استخلاص ما يلي:

- على المشتغل بالدراسات القرآنية أن يدرس عادات العرب القولية دراسة جيدة.
  - يجب على مترجم معاني القرآن الكريم إلى لغات أخرى أن يتضلع من عادات العرب القولية ليقول عن الله بعلم.
  - التيقن بأنه يتحتم على من يتعرض للقرآن الكريم تفسيراً وفهماً أن يقف على ملابسات النزول وهي أوسع من أسباب النزول؛ لأنها أسباب غير مباشرة تكمن في سنن العرب وعاداتهم.
  - تأكيد البحث على أنه لا يمكن أن نفهم القرآن ما لم نستحضر سياق الآية اللغوي، وسياقها غير اللغوي.
  - بيان البحث لظروف العرب الاجتماعية والفكرية والدينية، ودراسة ذلك من خلال أكثر من ثمانين مثلاً هي جوهر هذا البحث.
  - يحذر البحث من الوهم الذي قد يلاحق كل مشتغل بالدراسات القرآنية بسبب تغافله عن سنن العرب القولية.
- التوصية: أوصي بجمع موسوعة لغوية عربية تكون مادتها من خلال كتب التفسير وفروع العربية، لتعين على فهم صحيح للقرآن الكريم.

## صحيفة المراجع

- الإِتقان في علوم القرآن للسيوطي - تحقيق مركز الدراسات القرآنية - الأولى - مجمع الملك فهد - ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- أحكام القرآن لابن العربي، ت: محمد عطا، دار الفكر لبنان د. ت.
- الإحكام لابن حزم، دار الحديث، الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- إرشاد العقل السليم لأبي السعود، دار الفكر، د. ت.
- أساس البلاغة للزمخشري، الهيئة العامة للكتاب، الثالثة، ١٩٨٥م.
- أسباب النزول للواحدي، تحقيق أيمن صالح، دار الحديث بالقاهرة - الرابعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- أضواء البيان للشنقيطي، دار الفكر، الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- أمالي القالي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٥م.
- أنوار التنزيل للبيضاوي، الصناديقية بالقاهرة، د. ت.
- البحر المحيط لأبي حيان، دار الفكر بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- البرهان للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعرفة. د. ت.
- تاج العروس للزبيدي ت: علي شيري - دار الفكر - الأولى - ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير لابن عاشور، دار سحنون بتونس، د. ت.
- التعريفات للجرجاني، تحقيق إبراهيم الإيباري، دار الكتاب العربي، الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة، الثانية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- تهذيب اللغة للأزهري ت: عبد السلام هارون - دار الكتب المصرية، الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- جامع البيان للطبري، دار الفكر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الجامع الصحيح للبخاري، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، طبع فياض بالمنصورة. د. ت.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د. ت.
- الحماسة البصرية، ت: د. عادل سليمان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- خزانة الأدب للبغدادي، ت: عبد السلام هارون، الخانجي، الرابعة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الخامسة. د. ت.
- ديوان الخنساء، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ديوان جرير ت: نعمان محمد طه، دار المعارف بمصر.
- ديوان حسان بن ثابت، دار المعارف، تحقيق: د. سيد حنفي حسنين، د. ت.
- ديوان طرفة بن العبد تحقيق د. على الجندي، ط الأجلو. د. ت.
- ديوان عنترة ت: عبد المنعم شابي، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م.
- ديوان النابغة الذبياني، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الثالثة، ١٩٩٠م.
- ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، جمع وتحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- الرسالة للإمام الشافعي، مكتبة دار التراث، تحقيق أحمد شاكر، الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي، الرابعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- زاد المسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ت: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م
- شرح شواهد الشافية للبغدادي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- الصاحبي لابن فارس ت: السيد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر - ٢٠٠٣م.
- الصحاح للجوهري ت: أحمد عطا - دار العلم للملايين - الثالثة - ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- صحيح مسلم، إحياء التراث العربي، ترقيم محمد فؤاد. د. ت.
- فتح القدير للشوكاني، دار الفكر، الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- فقه اللغة للثعالبي دار البشير - مصر د. ت.
- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون - دار الجيل - الأولى - د. ت.
- الكشاف للزمخشري، دار الفكر بيروت، د. ت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، دار الكتب العلمية بيروت.
- لباب النقول للسيوطي، ت: ياسر عزب، التوفيقية بمصر، د. ت.
- اللباب لابن عادل، المكتبة الشاملة.

- لسان العرب لابن منظور، دار المعارف بمصر د. ت.
- لطائف الإشارات للقشيري تحقيق د. إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة، ٢٠٠٠ م.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، العبيكان، الأولى، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.
- المحرر الوجيز لابن عطية، قطر، الأولى، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.
- المخصص لابن سيده، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأولى - ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تحقيق محمد جاد المولى، وعلى البيجاوي، دار الحرم للتراث، الثالثة، د. ت.
- المصباح المنير للفيومي، طبع دار الفكر، د. ت.
- معالم التنزيل للبغوي، ت: خالد العك، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٧ هـ.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، الأولى، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م.
- مفاتيح الغيب للفيروز الرازي، دار الفكر، الثالثة، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.
- المفردات للراغب الأصفهاني: دار القلم دمشق، ت: صفوان عدنان داودي، الثانية، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.
- مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون بالاسكندرية بمصر د. ت.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، الرابعة، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م.

- نظم الدرر للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- النكت والعيون للماوردي، ت: خضر محمد خضر، دار الصفوة، الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- النيسابوري، على حاشية الطبري، الحجر بمصر. د. ت.



## المحتويات

٢١	ملخص البحث.....
٢٢	المقدمة.....
٢٧	المبحث الأول: العادة.....
٣٤	المبحث الثاني: عادات العرب القولية في ضوء آيات العقيدة.....
٦٨	المبحث الثالث: عادات العرب القولية في ضوء آيات العبادات.....
٧٥	المبحث الرابع: عادات العرب القولية في ضوء آيات المعاملات.....
٨٧	الخاتمة.....
٨٨	صحيفة المراجع.....
٩٣	المحتويات.....